

الفصل الأول

اكتشف نداءك الباطني: مهمتك في الحياة

إنك تملك نوعًا من القوة الداخلية التي تسعى لإرشادك إلى مهمة حياتك (ما أراده القدر أن تتجزه في الزمن الذي ستمضي فيه حياتك). في مرحلة الطفولة كانت هذه القوة واضحة لك. لقد كانت تُوجِّهك نحو الأنشطة والموضوعات التي تناسب ميولك الطبيعية، وتثير فيك فضولًا فطريًا عميقًا. ولكن في السنوات اللاحقة، مالت هذه القوة إلى التلاشي بدرجة متفاوتة نتيجة ما تسمعه من الآباء والأقران، فضلًا عن القلق اليومي الذي يتلبس بك، وهذا قد يكون مصدر تعاستك (انعدام اتصالاتك بنفسك وجوهرك الذي يجعلك شخصًا فريدًا متميزًا عن الآخرين). إن الخطوة الأولى نحو الإتقان هي دائمًا متجهة إلى الداخل لاكتشاف مَنْ هو أنت حقًا، وإعادة الاتصال بتلك القوة الفطرية. وبعد أن تعرف ذلك وتدركه جيدًا ستجد طريقك إلى المسار الوظيفي الصحيح، وكل شيء آخر سيستقر في مكانه الصحيح. ومهما مضى من الزمن فإن الوقت ليس متأخرًا أبدًا للبدء بهذه العملية.

القوة الخفية

مع اقتراب نهاية شهر أبريل (نيسان) من عام 1519م، وبعد مكابدة شهور من المرض شعر الفنان ليوناردو دافينشي أن أياماً معدودات باتت تفصله عن الموت المحتوم. كان ليوناردو طوال العامين الماضيين يعيش في قصر كلو بفرنسا، ضيفاً شخصياً للملك الفرنسي فرانسوا الأول الذي أعدق عليه المال والتكريم؛ فقد كان الملك يُعدهُ تجسيدا حياً لعصر النهضة الإيطالية، وهي النهضة التي كان الملك يسعى إلى إحيائها في فرنسا. لقد كان لوجود ليوناردو في فرنسا أعظم فائدة للملك، من حيث تقديم المشورة له في مختلف أنواع المسائل المهمة. ولكنه الآن، وقد بلغ سنَّ السابعة والستين، وشارفت حياته على الانتهاء، فإن أفكاره أخذت بالتحوُّل نحو أمورٍ أُخرى؛ إذ كتب وصيته، وتلقَّى السر المقدس في الكنيسة، ثم عاد إلى سريرِهِ، منتظراً نهاية الأجل.

بينما هو راقد في سريرِهِ زاره كثير من أصدقائه، بمن فيهم الملك نفسه. وقد لاحظوا جميعاً أنه غلب على ليوناردو مزاج تأملي عميق؛ إذ لم يكن معهوداً فيه حُبُّ التحدُّث عن نفسه، ولكنه الآن أخذ يشارك مَنْ حوله ذكريات طفولته وشبابه، مُطِنِّباً في الحديث عن المسار الغريب لحياته.

كان لدى ليوناردو على الدوام شعور قوي عن القدر والمصير، وكان يشغل باله طوال السنين بسؤال واحد معيَّن: هل توجد قوة من الداخل تجعل الكائنات الحية جميعها تنمو وتحوُّل نفسها؟ وفي حال وُجِدَت هذه القوة في الطبيعة فإنه أراد أن يكتشفها، فكان يبحث عن الإشارات في كل شيء يتفحصه. وكان ذلك افتتانياً مستحوذاً عليه. والآن، وفي ساعاته الأخيرة، وبعد أن غادر أصدقاؤه وبقي وحده، لا بد أنه طَبَّقَ هذا السؤال - بصورة أو أُخرى- على لغير حياته، بحثاً عن دلائل أو أمارات على وجود قوة أو مصير كان سبب نمائه ووجهته إلى ما آل إليه في الوقت الحاضر.

لوقام ليوناردو بهذا البحث لكان أول شيء يفعله هو العودة بتفكيره إلى مرحلة الطفولة في قرية فينشي التي تبعد نحو (20) ميلاً عن فلورنسا. عمِل والده السير بييرو دافينشي كاتباً للعدل، وكان عضواً متفانياً من أبناء الطبقة البرجوازية. ولكن، لمَّا كان ليوناردو قد

وُلِدَ خارج إطار الزواج فقد مُنِعَ من الالتحاق بالجامعة، أو مزاوله أي من المهن النبيلة؛ لذا لم يُحصَل سوى الحد الأدنى من التعليم. وهكذا تُرِكَ ليوناردو في طفولته هو وشأنه. كان أحب شيء لديه أن يتمشَّى في بساتين الزيتون المحيطة بقرية فينشي، أو أن يسلك دربًا معيَّنًا يؤدي به إلى جزء مختلف من الغابات الكثيفة المليئة بالخنازير البرية، والشلالات المتتالية على جداول الماء سريعة الحركة، والبجع التي تعوم بين البرك، والزهور البرية غريبة الشكل التي تنمو على جوانب المنحدرات. لقد كان هذا التثوُّع الكثيف للحياة في هذه الغابات يأسر عقله.

في أحد الأيام، وبعد أن تسلَّل إلى مكتب والده، تناول بعض الأوراق، والورق في ذلك الوقت كان سلعة نادرة. ولكن، كان لدى والده كميات كبيرة بحكم عمله كاتبًا للعدل. أخذ تلك الأوراق معه حين مشى إلى الغابة، وجلس على صخرة، ثم بدأ يرسم المشاهد المختلفة حوله. وظل يعود يومًا بعد يوم يُكرِّر المزيد من الرسم. وحتى في الأوقات التي يكون الطقس فيها سيئًا، كان يجلس تحت شيء يقيه من المطر، ويبدأ بالرسم. لم يكن لديه مُعلِّم، ولا لوحات مرسومة ينظر فيها، ولكنه فعل كل شيء عن طريق النظر، حيث كانت الطبيعة هي النموذج الذي يرسم على منواله. وقد لاحظ أنه حين يرسم الأشياء تعيَّن عليه أن يُنعم النظر فيها ويتفحصها عن قرب؛ لكي يلتقط التفاصيل التي كانت تبعث الحياة فيما يرسم.

ذات مرة رسم زهرة سوسنة بيضاء، وحين كان يُحدِّق إليها عن قرب انتابه الذهول من غرابة شكلها؛ إذ تبدأ السوسنة حياتها من البذرة، ثم تتقدَّم خلال مراحل مختلفة، وقد سبق أن رسم تلك المراحل طوال السنوات القليلة الماضية. فما الذي جعل هذه النبتة تتطوَّر خلال مراحلها لتبلغ منتهاها بهذه الزهرة الرائعة بطريقة لا مثيل لها؟ ربما لأنها تمتلك قوة تدفعها خلال هذه التحوُّلات المختلفة. لقد ظل يتساءل عن هذا التحوُّل في حياة الزهور سنوات قادمة.

بينما كان ليوناردو وحيدهً مستلقيًا على فراش الموت عاد بفكره إلى السنوات الأولى التي كان فيها تلميذًا في استوديو الفنان الفلورنسي أندريا ديل فيروشييو، حيث قُبِلَ في

التلمذة وهو في سنِّ الرابعة عشرة للجودة الملحوظة في رسوماته. كان فيروشيوي يُعلِّم تلاميذه مختلف العلوم اللازمة لإنتاج العمل في مرسومه (الهندسة، الميكانيكا، الكيمياء، علم المعادن)، وكان ليوناردو حريصًا على معرفة هذه المهارات كلها، ولكنه سرعان ما اكتشف في نفسه شيئًا آخر؛ إنه لا يطيق أن يكون مُنفذًا لما يُكلِّف به من مهام فحسب، بل كان يشعر بالحاجة إلى أن يصنع الأشياء من تلقاء نفسه؛ أن يبتكر بدلًا من أن يُقلِّد رئيسه. ذات مرة، طُلب إليه، بحكم عمله في الاستديو، أن يرسم ملكًا من الملائكة ليكون جزءًا من مشهد كبير مستقَّى من الكتاب المقدس صمَّمه مُعلِّمه فيروشيوي. قرَّر دافينشي أن يجعل نصيبه من المشهد مُفعَّمًا بالحياة بطريقته الخاصة، فعمد إلى رسم حديقة من الورود في الواجهة الأمامية من مشهد الملاك، ولكنه بدلًا من رسم النباتات وفق الطريقة الشائعة المعهودة، أظهر أصناف الزهور التي كان قد تأمَّلها ودرس أدق تفاصيلها عندما كان صبيًّا، كل ذلك بنوع من الصرامة العلمية لم يرَ أحد مثلها قطُّ. أمَّا وجه الملاك فقد أجرى عدَّة تجارب في الأصباغ، فخلط مزيجًا من الألوان حتى أضفى عليه نوعًا من البهاء السامي الذي يليق بعظمة الطبيعة الملائكية (وللمساعدة على تجسيد هذا الطبيعة، أمضى ليوناردو وقتًا في الكنيسة المحلية يراقب المصلين الخاشعين في صلاتهم، واستقى تقاسيم وجه أحد الشبان لجعلها نموذجًا للملاك). أخيرًا، فقد عقد عزمه أن يكون أول فنان يرسم أجنحة حقيقية للملائكة.

لهذا الغرض، ذهب إلى السوق واشترى عددًا من الطيور، ثم أمضى ساعات في رسم أجنحتها، مُصوِّرًا تصويرًا دقيقًا كيف تندمج في أجسادها. كان يرغب في إيجاد إحساس يُظهر أن هذه الأجنحة نمت بطريقة عضوية وطبيعية من كتفي الملاك بحيث تمنحه القدرة على الطيران. ومثلما عوَدنا دائمًا، لم يتوقف ليوناردو عند هذا الحد. فبعدما فرغ من هذا العمل تولَّد لديه هوس بالطيور، واختمرت لديه فكرة ترى أن البشر يمكنهم الطيران حقيقةً لو قُدِّر له أن يكتشف العلم الذي يتناول قدرة الطيور على الطيران. لذلك كان يمضي بضع ساعات كل أسبوع في القراءة، ودراسة كل شيء يمكن أن يضع يده عليه عن الطيور. لقد كانت هذه هي الطريقة التي يعمل وفقها عقله؛ فكرة واحدة تقوده إلى أخرى.

لا شك أن ليوناردو قد استذكر أدنى نقطة في حياته، كان ذلك عام 1481م حين طلب البابا آنذاك من لورينزو دي ميديشي أن يُزكِّي له خيرة الفنانين في فلورنسا لتزيين كنيسة جديدة قد فرغ توًّا من بنائها، وهي كنيسة سيستين. امتثل لورينزو لأمر البابا فأرسل إلى روما أفضل فناني فلورنسا باستثناء ليوناردو. لم يكن لورينزو وليوناردو على وفاق قط؛ فقد كان لورينزو حرفياً في منهجه، ومتشَبِّهاً بالضوابط التقليدية. أمَّا ليوناردو فلم يكن يجيد اللغة اللاتينية، ولم ينل سوى القليل من المعرفة عن القدماء، وكان في طبيعته نزعة علمية قوية، ولكن أصل المرارة التي شعر بها تجاه هذا الازدراء كان شيئاً آخر، هو أنه كان يكره أن يُجبر الفنانون على حَطْب وُدِّ أصحاب السلطة، وأن يكتسبوا عيشتهم من عطية إلى أخرى؛ لقد تزايد ضجره من فلورنسا، ومن سياسات حكامها السائدة آنذاك.

لذلك اتخذ قراراً غير كل شيء في حياته؛ إذ أراد أن يؤسِّس نفسه في مدينة ميلان، وأن يضع إستراتيجية جديدة لمصدر رزقه. سيكون أكثر من فنان، وسيتعقَّب مختلف الحرف والعلوم التي تثير اهتمامه (الهندسة المعمارية، الهندسة العسكرية، الهيدروليك (علم حركة السوائل)، علم التشريح، النحت). فأعلن أنه على استعداد ليكون مستشاراً عاماً وفناناً لأيِّ أمير أو زبون دائم يرغب في خدماته لقاء راتب مُجزٍ. رأى ليوناردو أن عقله يكون في أفضل أدائه حين يتولَّى العمل في أكثر من مشروع مختلف، وهو ما يسمح له باستكشاف أنواع الروابط بينها جميعاً والبناء عليها.

استمرَّراً في عملية محاسبة النفس، عاد ليوناردو بتفكيره إلى واحدة من أعظم المهام التي قَبِلَ إنجازها في تلك المرحلة الجديدة في حياته، وهي بناء تمثال فروسي برونزي هائل تخليداً لذكرى فرانسيسكو سفورزا؛ والد الدوق الحالي لمدينة ميلان. لقد كان التحدي بالنسبة إليه لا يقاوم؛ لأن حجم التمثال سيكون كبيراً جداً بحيث لن يرى أحد مثله منذ أيام روما القديمة، ثم إن صَبَّ شيء بهذا الحجم الكبير جداً من البرونز يحتاج إلى مهارة وجهود هندسية حيَّرت الفنانين جميعاً في عصره. عمِلَ ليوناردو على تصميم التمثال أشهراً عدَّة. ولكي يختبر التصميم؛ أنشأ نموذجاً طبق الأصل من التمثال مصنوعاً من الصلصال، ثم عرضه في أكبر ساحة عامة في مدينة ميلانو. كان التمثال ضخماً، وكان حجمه يعادل حجم

بناية كبيرة، وكانت الحشود التي تتجمّع لرؤية التمثال تشعر بالذهول من حجم التمثال، ووضعية الحصان المندفع التي تكشف عن براعة الفنان في تجسيدها، إضافةً إلى جوانبها المخيفة. انتشر خبر هذا التمثال الأعجوبة في مختلف أنحاء إيطاليا، وانتظر عامة الناس بصبر نافذ تحقيقه بشكله البرونزي. ولتحقيق هذا الغرض، ابتكر ليوناردو طريقة جديدة كلياً في سكب المعادن؛ فبدلاً من صبّ كل جزء من أجزاء الحصان في قالب منفصل، بنى ليوناردو القالب بحيث بدا التمثال قطعة واحدة متواصلة بانسياب (مستخدمًا مزيجًا غير عادي من المواد التي اكتشفها)، وذلك بسكبه دفعة واحدة في قالب واحد، ما أضفى على الحصان مظهرًا عضويًا طبيعيًا أكثر مما تظهره الطرائق التقليدية في صناعة التماثيل.

ولكن، بعد أشهر عدّة، اندلعت الحرب، وكان الدوق في أمّس الحاجة إلى كل ذرة من البرونز قد تقع عليها يده من أجل صنع المدافع. وفي نهاية المطاف، أُزيل تمثال الطين من دون تشييد التمثال البرونزي مكانه. فأخذ بعض الفنانين يسخرون من حماقة ليوناردو؛ لأنه أمضى وقتًا طويلاً في إيجاد الحل المثالي، فجاءت الأحداث في غير مصلحته. حتى مايكل أنجلو نفسه سخر من ليوناردو ذات مرة قائلاً: «أأنت الذي صنعت نموذجًا طينياً للحصان، ولم تتمكن من صنع آخر برونزيًا، ثم تخلّيت عنه، فجلبت على نفسك العار. كيف وثّق بك أهل ميلان الأغبياء؟» لكن ليوناردو كان قد اعتاد على سماع مثل هذه الإهانات عن تلاميذه في إنجاز العمل. والحقيقة أنه لم يندم على شيء من تلك التجربة؛ فقد استطاع اختبار أفكاره بخصوص كيفية هندسة المشروعات الكبيرة، واستطاع تطبيق هذه المعرفة في مكان آخر. وعلى أيّ حال، لم يكن ليوناردو يهتم كثيرًا بالمنتج النهائي، وإنما كان البحث واكتشاف طريقة صنع الأشياء هو محل حماسه دائماً.

في معرض تفكّره فيما مضى من حياته بهذه الطريقة، لا بد أنه اكتشف بوضوح طريقة عمل نوع من القوة الخفية في داخله. هذه القوة التي دفعته - حين كان طفلاً - إلى أقصى المشاهد وأغربها؛ إذ استطاع ملاحظة تنوّع الحياة في أشد صورها وأكثرها إثارة، وهذه القوة نفسها هي التي اضطرتّه إلى سرقة الورق من مكتب والده، وتخصيص وقته للرسم، ودفعته إلى إجراء الاختبارات والتجارب في أثناء عمله عند فيروشييو، وهي التي قادته بعيداً

عن قصور أصحاب السلطة في فلورنسا والغرور المريب المتفشي بين الفنانين. لقد دفعته إلى أبعد درجات الجرأة والمغامرة (التماثيل الضخمة، محاولة الطيران، تشريح مئات الجثث لغرض دراسات تشريح الأعضاء)؛ كل ذلك بغية اكتشاف جوهر الحياة نفسها.

بسبر غور حياته من هذه الزاوية، يبدو أن كل شيء فيها كان منطقيًا. وفي الواقع، فإن حقيقة أنه مولود غير شرعي كانت نعمة له؛ لأنها مكّنته من التطوُّر في حياته بطريقته الخاصة. وحتى الورق في منزله كان له دلالة على المصير الذي آل إليه. فماذا كان سيحدث لو أنه تمرّد على هذه القوة؟ ماذا لو أنه - بعد أن استُبعد من مشروع كنيسة سيستين- أصر على الذهاب إلى روما مع الآخرين، وشق طريقه إلى البابا لينال من نعمه الوفيرة بدلاً من السعي إلى طريقه الخاص في كسب رزقه؟ لقد كان باستطاعته فعل ذلك. ماذا لو أنه بذل نفسه لرسم اللوحات دون غيرها من الأعمال الفنية ليحيا حياة جيدة؟ ماذا لو أنه فعل مثلما يفعل الآخرون الذين ينجزون أعماله بأسرع وقت ممكن؟ لقد كان باستطاعته فعل ذلك على أحسن وجه، ولكنه لو فعل لن يكون ليوناردو دافينشي الذي نعرفه؛ إذ ستفتقر حياته إلى الهدف الذي حققته، وتسير الأمور في غير طريقها الصحيح ولا شك.

إن هذه القوة الخفية التي كانت في داخله - شأنها شأن تلك القوة المستقرة في داخل زهرة السوسنة التي رسمها قبل سنوات عدّة- أدّت إلى الازدهار الكامل لقدراته. وقد تابع بإخلاص توجيهاتها حتى النهاية. وبعد أن أكمل دورته حان الوقت الآن للموت. ربما عادت إليه كلماته التي كتبها قبل سنوات في دفتر ملحوظاته؛ في مثل هذه اللحظة: «مثلما يجلب لنا اليوم المليء بالعمل نومًا مباركًا، فكذلك الحياة التي أُحسِنُ توظيفها تجلب لنا موتًا مباركًا».

مفاتيح الإتقان

«من بين كل الأدوار (الذوات) الممكنة التي يمكن للمرء أن يعيشها، فإن دورًا واحدًا فقط هو الذي يجده المرء حقيقيًا وأصيلًا لوجوده. والصوت الذي يدعوه إلى ذلك الدور الحقيقي الأصيل هو ما نطلق عليه اسم النداء الباطني، بيد أن السواد الأعظم من الناس يبذلون أنفسهم لإسكات هذا الصوت، ويرفضون الاستماع إليه، وينجحون في اختلاق الضوضاء

داخل أنفسهم... لصرّفا عن الانتباه والحيلولة دون سماعه؛ وبذلك يحتالون على أنفسهم حين يستبدلون بذاتهم الحقيقية الأصيلة دورة حياة مزيفة».

-خوسيه أورتيغا غاسيت

اعترف كثير من أصحاب الرياسة العظماء على مرّ العصور أنهم شهدوا نوعاً من القوة، أو الصوت، أو الشعور بالمصير الذي أرشدهم إلى الأمام.

فبالنسبة إلى نابليون بونابرت كان نجمه الذي يشعر به دائماً في صعوده حين يقوم بالخطوة الصحيحة. وبالنسبة إلى سقراط كانت الروح الخفية هي (الصوت الذي يسمعه، ربما من الآلهة) التي تُحدّثه حتماً عمّا يجب عليه تجنّبُه. أمّا غوته فقد أطلق عليها أيضاً اسم الأرواح الخفية (نوع من الروح التي سكنت داخله وأجبرته على استيفاء مصيره). وفي العصر الحديث، تحدّث ألبرت آينشتاين عن نوع من الصوت الداخلي مثل اتجاه نظرياته وتأمّلاته. فهذه الصور المتنوعة كلها تدل على ما شهدته ليوناردو دافينشي بإحساسه الخاص بالمصير.

يمكن النظر إلى هذه المشاعر بوصفها ظاهرة باطنية خالصة لا تقبل التفسير، أو نوعاً من الهلوسة والأوهام. ولكن توجد طريقة أخرى للنظر إليها بوصفها حقيقية على نحو بارز وعملية وقابلة للتفسير، ويمكن تفسيرها على النحو الآتي:

كل واحد منّا يولد متفرّداً في نوعه بطريقة خاصة، وهذا التفرّد مدموغ في الحمض النووي. إذن، كل إنسان هو ظاهرة تحدث مرة واحدة في هذا الكون؛ فتركيبتنا الجينية لم تحدث قط من قبل، ولن تتكرّر أبداً مستقبلاً. وبالنسبة إلينا جميعاً، فإن هذا التفرّد يُعبّر عن نفسه أولاً في مرحلة الطفولة عن طريق بعض الميول البدائية. فبالنسبة إلى ليوناردو، فقد ظهر ذلك في ميله إلى استكشاف العالم الطبيعي في مختلف أنحاء قريته، ثم إعادته إلى الحياة على الورق بطريقته الخاصة. وبالنسبة إلى الآخرين، فقد يكون على صورة انجذاب في وقت مبكر نحو أنماط بصرية، يكون لها غالباً دلالة على اهتمام مستقبلي بالرياضيات، أو قد تكون انجذاباً إلى حركات جسدية خاصة، أو ترتيبات مكانية. فكيف يمكننا تفسير هذه الميول؟ إنها قوى في داخلنا تنطلق من مكان عميق هو أبعد من أن تُعبّر عنه الكلمات

الواعية؛ إنها قوى تجذبنا نحو تجارب معيَّنة، وتبعدنا عن غيرها. ومثلما تحركنا هذه القوى هنا وهناك فإنها تُؤثِّر في تطوُّر عقولنا بطرائق خاصة جدًّا.

إن هذا التفردُ الأولي يسعى بطبيعة الحال إلى تأكيد نفسه والتعبير عنها، ولكن بعضنا يشعر به بقوة أكثر مما يشعر به الآخرون، ولكنه عند أصحاب الرياسة يكون دائماً قوياً بحيث يبدو كأنه شيء له حقيقة خارجية خاصة به (قوة، صوت، مصير). وفي اللحظات التي تتفاعل فيها بنشاط يتوافق مع توجهاتنا العميقة، فإننا قد نشعر بطيف من هذه القوة؛ نشعر كما لو أن الكلمات التي نكتبها أو الحركات الجسدية التي نؤديها قد أتت بسرعة وسهولة، كأنها جاءت من خارجنا، فنحن بذلك نكون «ملهمين» بالمعنى الحرفي للكلمة التي يعني أصلها اللاتيني أن شيئاً من الخارج يتنفس في داخلنا.

دعونا نصف هذا الأمر بما يأتي: ولادتك هي نتاج بذرة عُرسَت، وهذه البذرة هي طابعك الفريد التي تمتاز به عن الآخرين، وهي تريد أن تنمو، وتحوَّل نفسها، وتزهر لتُحقِّق كامل إمكاناتها؛ ذلك أنها تحتوي على طاقة طبيعية حازمة. و«مهمة حياتك» هي أن توصل هذه البذرة إلى مرحلة الإزهار، وتعبِّر عن تفردك بوساطة عملك. تذكَّر أن لك مصيراً يتعيَّن عليك الوصول إليه. وكلما كنت أقوى في شعورك به ورعايتك له - بوصفه قوةً، أو صوتاً، أو مُتمثلاً في أيِّ شكل من الأشكال - ازدادت فرصتك في إنجاز «مهمة حياتك» وتحقيق الإلتقان.

أمَّا ما يضعف هذه القوة، ويجعلك لا تشعر بها أو حتى تشك في وجودها، فهو الدرجة التي تستسلم فيها لقوة أخرى في الحياة؛ أي الضغوط الاجتماعية في التوافق، وهذه القوة المعاكسة يمكنها أن تكون قوية جدًّا. فأنت تريد أن تكون متوافقاً مع المجموعة. وقد تشعر - من دون وعي - أن الذي يجعلك مختلفاً هو شيء محرج أو مؤلم. وفي كثير من الأحيان يكون سلوك الآباء قوة معاكسة أيضاً؛ فهم قد يسعون إلى توجيهك إلى مسار وظيفي مريح ومريح. وإذا بلغت القوى المعاكسة درجة من القوة فليس مستبعداً أن تُفقد الاتصال الكامل بتفردك، وبمَن أنت حقاً، فتصبح ميولك ورغباتك على غرار ميول الآخرين ورغباتهم.

تذكَّر: أيضاً أن هذا قد يضعك على مسار محفوف بالمخاطر. وينتهي بك المطاف إلى اختيار مهنة لا تناسبك حقاً، فيبدأ اهتمامك ورغبتك بالانحسار التدريجي، ويتأثَّر

عملك نتيجةً لذلك. عندئذٍ، تصبح المتعة والإشباع - بالنسبة إليك - إحساسًا يأتي من خارج عملك. ونظرًا إلى أنك أصبحت - بصورة متزايدة - أقل نشاطًا وتفاعلاً في حياتك المهنية؛ فإن ملاحظة التغييرات التي في الميدان ستفوتك، وستتخلف عن الركب، وتدفع ثمن ذلك. وفي بعض الأحيان يتعيّن عليك اتخاذ قرارات مهمة، لكنك ستتعثّر، أو تتابع ما يفعله الآخرون؛ لأنك تفتقر إلى حسّ بالتوجه الداخلي، أو إلى حدس يرشدك. لقد قطعت الاتصال بمصيرك الذي تشكّل عند ولادتك. إذن، يجب عليك تجنّب هذا المصير مهما كانت التكلفة، ولا تنسَ أن عملية متابعة «مهمة حياتك» حتى الإتقان قد تبدأ بأيّ لحظة في الحياة؛ فالقوة الخفية في داخلك هي موجودة دائمًا وجاهزة للتفاعل.

تتضمّن عملية تحقيق «مهمة حياتك» ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: يجب عليك الاتصال (أو إعادة الاتصال) بميولك في هذه المرحلة؛ أي ذلك الحس بالتفرّد. فالخطوة الأولى إذن هي دائمًا موجهة نحو الداخل. يجب عليك أيضًا أن تبحث في الماضي عن علامات تدل على النداء الباطني أو القوة، وأن تزيل الأصوات الأخرى التي قد تُربكك وتُشوِّش تفكيرك (مثل الآباء والأقران)، وأن تبحث عن نمط أساس هو جوهر شخصيتك الذي يجب عليك أن تفهمه أعمق الفهم قدر المستطاع.

المرحلة الثانية: يجب عليك - بعد تحقيق هذا الاتصال - أن تنظر في مسارك الوظيفي الذي بدأت العمل فيه، أو كنت على وشك أن تبدأ فيه. واختيار هذا المسار (أو إعادة توجيهه) هو أمر مهم جدًا. وللمساعدة في هذه المرحلة فإنك بحاجة إلى توسيع مفهومك للعمل نفسه. والحقيقة أننا ننزع غالبًا إلى الفصل بين نطاقات حياتنا (توجد حياة في العمل، وحياة أخرى خارج العمل)، حيث نجد فيها متعة حقيقية وإشباعًا. ونحن أيضًا ننظر إلى العمل بوصفه وسيلة لكسب المال من أجل تحقيق المتعة في الحياة الأخرى خارج العمل. وحتى لو كنّا نستمد بعض الإشباع والمتعة من عملنا، فإننا نبقى - مع ذلك - نميل إلى تجزئة حياتنا على هذا النحو. لا شك أن هذا النهج يبعث على الإحباط؛ لأننا - في نهاية المطاف - نمضي جزءًا كبيرًا من حياتنا يقظين في العمل. فإذا كنّا نعيش هذا الوقت بوصفه

أمراً لا مفر منه لكي نحصل على المتعة الحقيقية، فإن الساعات التي نمضيها في العمل تُعدُّ مضيعة مأساوية من هذه المدة الزمنية في حياتنا القصيرة التي نعيشها.

الأولى لك - بدلاً من ذلك - أن تنظر إلى عملك بوصفه شيئاً أكثر إلهاماً؛ أي جزءاً من رسالتك (ندائك الباطني). وكلمة «نداء» في الإنجليزية جاءت من اللاتينية، ومعناها الأصلي أن تدعو، أو أن تكون مدعوًا. وقد بدأ استخدامهما في سياق العمل والمهنة مطلع عهد المسيحية، حين دُعِيَ أناس مُحدِّدون لقضاء حياتهم في خدمة الكنيسة، فكانت تلك رسالتهم (مهنتهم، دعوتهم)، واستطاعوا إدراك هذا بالمعنى الحرفي عن طريق سماع صوت من الرب الذي اختارهم لهذه المهمة. ومع مرور الوقت، اكتسبت الكلمة طابعاً علمانياً للدلالة على أي عمل أو دراسة يشعر الشخص أنها تناسب اهتمامه، ولا سيما في الحرف اليدوية. وبالرغم من ذلك فقد حان الوقت أن نعود إلى معنى الكلمة الأصلي؛ لأنه أقرب إلى فكرة «النداء الباطني» والإلتقان. تذكر أن الصوت الذي يناديك في هذه الحالة ليس - بالضرورة - قادمًا من الرب، بل من أعماق نفسك؛ إنه ينحدر من فردانيتك، ويخبرك عن الأنشطة التي تناسب شخصيتك. وعند مرحلة معينة سيدعوك إلى شكل معين من العمل أو المهنة. عندئذٍ، سيكون عملك متصلًا اتصالاً عميقًا بذاتك الحقيقية، لا بجزء منفصل من حياتك، ما يتيح لك تطوير نداءك الباطني (مهنتك).

المرحلة الثالثة: يجب عليك أن تنظر إلى حياتك المهنية أو مسارك المهني بوصفه رحلة فيها ما فيها من التحوُّلات والانعطافات، لا خط مستقيم. يجب عليك أيضًا أن تبدأ باختيار حقل أو منصب يتوافق تقريبًا مع ميولك ورغباتك. فهذا الموقف المبدئي يُوفِّر لك مجالاً للمناورة وتعلُّم مهارات مهمة. إنك لا تريد أن تبدأ بشيء مثالي رفيع، أو مسرف في الطموح؛ إنك بحاجة إلى كسب ما يسد رمقك، وتبني به بعض الثقة. وما إن تسلك هذا الدرب حتى تكتشف وحدك تفرُّعات جانبية تجذب اهتمامك، في حين أن جوانب أخرى من هذا الحقل ستبدو غير سائغة لك، ما يُحتمُّ عليك التكيُّف، أو ربما الانتقال إلى مجال آخر ذي صلة، مع الاستمرار في تعلُّم المزيد عن نفسك، والتوسع دائمًا خارج نطاق قاعدة مهاراتك. ومثلما فعل ليوناردو يتعيَّن عليك أن تأخذ ما تفعله من أجل الآخرين وتجعله خاصًا بك.

في نهاية الأمر، سوف تصل إلى حقل معين، أو بيئة ملائمة، أو فرصة تناسبك تمامًا. سوف تعرفها جيدًا حين تعثر عليها؛ لأنها ستثير فيك ذلك الشعور الطفولي بالفضول والإثارة، وسوف تشعر أنك في المكان الصحيح. وما إن تجدها حتى يستقر كل شيء في مكانه الصحيح. سوف تتعلم بسرعة أكبر وأكثر عمقًا، وسيصل مستوى مهاراتك إلى مرحلة تكون فيها قادرًا على المطالبة بالاستقلال من داخل المجموعة التي تعمل فيها لكي تستقل وحدك. لا تنسَ أن هذا العالم زاخر بالكثير الذي لا نستطيع السيطرة عليه، وأن هذا سيجلب لك شكل القوة النهائي، فتُحدّد ظروفك الخاصة. وهكذا بعد أن أصبحت سيد نفسك لن تكون بعد اليوم خاضعًا لأهواء رؤسائك المستبدين أو الأقران المولعين بالمكائد.

قد يبدو هذا التركيز على تفردك و«مهمة حياتك» ضربًا من الغرور الرومانسي الخالي من أي تأثير في الواقع العملي، ولكنه - في واقع الأمر - على صلة كبيرة بالعصر الذي نعيش فيه. لقد دخلنا في عالم يتناقص فيه باستمرار الاعتماد على الدولة، أو الشركة، أو الأسرة، أو الأصدقاء في مساعدتنا وحمايتنا؛ إنه بيئة معولمة تسود فيها المنافسة الشديدة، ويجب علينا أن نتعلم كيف نطور أنفسنا، وهو - في الوقت نفسه - عالم يعج بالمشكلات والفرص المهمة، ورواد الأعمال هم خير من يتولّى اقتناص هذه الفرص وتقديم الحلول لتلك المشكلات؛ إنهم أفراد أو مجموعات صغيرة يمتازون بالتفكير المستقل، وسرعة التكيف، ويملكون وجهات نظر فريدة. وفي عالم مثل هذا، يكون لمهاراتك الفردية والابتكارية أعلى الأسعار.

لتكن نظرتك إلى الأمر بهذه الطريقة: إن أكثر ما ينقصنا في العالم الحديث هو الشعور بالهدف الأكبر في حياتنا. في الماضي، كان الدين المنظم هو مصدر هذا الشعور، ولكن معظمنا يعيش اليوم في عالم علماني. فنحن البشر فريدون في نوعنا؛ لذا يتعيّن علينا أن نبني عالمنا الخاص. إننا لا نستجيب بسهولة للأحداث عن طريق البرمجة البيولوجية. ولكن، إذا لم نملك إحساسًا بالاتجاه فإننا سنميل إلى التخبط والتعثّر؛ فنحن لا نعرف كيف نشغل وقتنا ونضع له هيكلًا، وسيبدو أننا نفتقد أي غاية مُحدّدة في حياتنا. ونحن ربما نكون غير واعين بهذا الفراغ، ولكنه سيصيبنا بمختلف أنواع الطرائق.

إن الشعور بأننا مدعوون لإنجاز شيء ما هو أكثر الطرائق إيجابية بالنسبة إلينا لتتلمس هذا الشعور بالهدف والاتجاه. إنه أشبه ما يكون بالمسعى الديني لكل واحد منّا. ولكن، لا ينبغي النظر لهذا المسعى بوصفه مسعىً أنانيًا أو معاديًا للمجتمع، فهو - حقيقةً - متصل بشيء أكبر كثيرًا من حياتنا الفردية؛ إذ اعتمد تطوُّرنا النوعي على إيجاد تنوع هائل من المهارات وطرائق التفكير؛ إننا نرتقي ونتقدّم عن طريق النشاط الجماعي للناس عامة وما يُقدّمونه للمجتمع من مواهبهم الفردية، ومن دون هذا التنوع تموت الثقافة.

إن تفرّدك عند الولادة هو مَعْلَمٌ من معالم هذا التنوع الضروري، ونهوضك بدورك الحيوي مرهون بقدر رعايتك لهذا التفرّد وتعبيرك عنه. ثمّة أصوات تنادي بتأكيد المساواة في عصرنا الحاضر، وقد يُظن خطأً أن المساواة تعني أن يكون الأفراد جميعًا سواء، ولكن ما تعنيه - حقيقةً - هو تكافؤ الفرص أمام الناس للتعبير عن اختلافاتهم؛ أي أن نسمح لألف زهرة بالتفتح. إن نداءك الباطني هو أكثر من مجرد العمل الذي تقوم به؛ إنه متصل اتصالاً وثيقًا بأعمق جزء من نفسك، وهو مظهر من مظاهر التنوع الشديد في الطبيعة، وداخل الثقافة الإنسانية. وبهذا المعنى، يجب أن تنظر إلى نداءك الباطني بوصفه شيئًا شاعريًا ومصدرًا للإلهام.

قبل نحو (2600) سنة كتب الشاعر اليوناني القديم بندار عبارته المشهورة: «كن كما أنت بعد أن تتعلّم من هو أنت». وكان يقصد: «أنت وُلدت بتركيبة مُحدّدة وميول وتوجهات معيّنة تميزك بوصفك جزءًا من المصير». وهذا هو أنت في جوهرك؛ إذ ينشأ بعض الناس ويصبحون أشخاصًا غير أنفسهم بحيث لم يُحقّقوا ذاتهم قط. لقد توقفوا عن الثقة بأنفسهم، وانشغلوا بمسايرة أذواق الآخرين، وانتهى بهم المطاف إلى ارتداء قناع يُخفي طبيعتهم الحقيقية. فإذا سمحت لنفسك أن تعلم من هو أنت حقًا بتوجيه اهتمامك إلى ذلك الصوت والقوة في داخلك، فعندئذٍ، يمكنك أن تصير إلى ما كان مُقدّرًا لك أن تكون؛ فردًا، أو رئيسًا.

إستراتيجيات العثور على مهمة حياتك

إن البؤس الذي يضطهدك لا يكمن في مهنتك بل في نفسك. هل من رجل في العالم لا يجد نفسه في وضع لا يطاق إذا اختار حرفةً، أو فنًّا، بل أيّ شكل من أشكال الحياة، من دون أن

يشعر ببدء داخلي؟ أيما شخص وُلِدَ موهوبًا، أو لموهبة، لا بد أن يجد فيها مهنة تمنحه أعظم الرضا. كل شيء على هذه الأرض له تداعياته الصعبة. ولكن، ما من شيء سوى الدافع الداخلي- متعة، أو حُب- يمكنه أن يساعدنا على تجاوز العقبات، وتهيئة الدرب، وانتشالنا من الدائرة الضيقة التي يقبع فيها الآخرون ويمضون فيها وجودهم البائس المكروب.

- يوهان فولفغانغ فون غوته

قد يبدو الاتصال بشيء شخصي، مثل ميولك الخاصة و«مهمة حياتك»، أمرًا طبيعيًا وسهلاً نسبيًا لحظة تعرّف أهميته، ولكنه - في واقع الأمر - عكس ذلك. إنه يتطلب قدرًا كبيرًا من التخطيط ووضع الإستراتيجيات بغية القيام به على الوجه الصحيح؛ نظرًا إلى كثرة العقبات التي ستطرح نفسها في الطريق. والإستراتيجيات الخمس الآتية، الموضحة في قصص أصحاب الرياسة في حقولهم، مُصمّمة للتعامل مع العقبات الأساسية التي قد تعترض سبيلك مع مرور الوقت: أصوات الآخرين التي قد تصيبك بالعدوى، والنزاع على الموارد المحدودة، واختيار المسارات الخطأ، والسقوط في حبال الماضي، والتهيه في الطريق. ولهذا يتعيّن عليك أن تولي هذه العقبات كلها اهتمامك؛ لأنك حتمًا ستواجه كل واحدة منها بصورة أو بأخرى.

1. عد إلى أصلك (إستراتيجية الميل البدائية)

يظهر الميل عند أصحاب الرياسة غالبًا بكل وضوح في مرحلة الطفولة، ولكنه يأتي أحيانًا بصورة شيء بسيط يتسبب في استجابة عميقة. عندما كان ألبرت أينشتاين (1879م- 1955م) في سنّ الخامسة، قدّم له والده بوصلة هدية. وفورًا، استحوذت الإبرة التي كانت تُغيّر اتجاهها مع تنقله من مكان إلى آخر على عقله. لقد أثرت فكرة وجود نوع من القوة المغناطيسية، تُؤثر في هذه الإبرة من دون أن تشاهد بالعين، تأثيرًا لاسم أعماقه. فماذا لو كانت توجد قوى أخرى في العالم غير مرئية، وبالدرجة نفسها من القوة (قوى غير مكتشفة، أو غير مفهومة)؟ بقيت أفكاره واهتماماته كلها تدور حول هذا السؤال المتواضع بخصوص القوى الخفية وحقولها حتى بقية حياته، وكان يتذكّر كثيرًا واقعة البوصلة التي أثارت فضوله أول مرة.

أمّا ماري كوري (1867م-1934م) التي اكتشفت الإشعاع لاحقاً، فكانت -وهي في سنّ الرابعة- تتنقّل في حجرة والدها المُخصّصة للدراسة، وفجأة وقفت مشدوهةً وهي تنظر في صندوق زجاجي يحوي مختلف أنواع الأدوات المخبرية التي تستخدم في تجارب الكيمياء والفيزياء. كانت تعود إلى الغرفة مرة بعد أُخرى لتُحدّق في هذه الأدوات، وتتخيّل كل أنواع التجارب التي يمكن أن تجريها بتلك الأنابيب وأجهزة القياس. وفي سنوات لاحقة، لمّا دخلت مختبراً حقيقياً أول مرة وأجرت بعض التجارب وحدها تذكّرت فوراً هوس طفولتها؛ لقد أدركت أنها وجدت نداءها الباطني (مهمتها).

وأما إنجمار بيرجمان (1918م-2007م) فقد تذكّر حدثاً لم يستطع نسيانه وهو في سنّ التاسعة؛ إذ اختار أبواه هدية لأخيه في عيد الميلاد جهاز عرض سينمائي (آلة تعرض صوراً متحركة باستخدام شرائح فيلم يعرض مشاهد بسيطة). كان إنجمار يرغب في الحصول عليها وحده، فعمل على مقايضتها بكل ما لديه من ألعاب، وما إن صارت في حوزته حتى أسرع إلى خزانة حائط كبيرة، فدخل فيها، وأخذ يشاهد الصور المبتوثة وهي تتلأأ على الحائط. لقد بدا المشهد كأن شيئاً يعود إلى الحياة - بصورة سحرية- في كل مرة يُشغّل فيها تلك الآلة، فأصبح إنتاج مثل هذا السحر هوسه مدى الحياة.

في بعض الأحيان يصبح هذا الميل واضحاً عن طريق نشاط معين يجلب معه شعوراً بقوة متزايدة. فعندما كانت مارثا غراهام (1894م-1991م) في مرحلة الطفولة شعرت بإحباط شديد لعدم قدرتها على جعل الآخرين يفهمونها جيداً؛ إذ بدت الكلمات غير كافية. وفي يوم من الأيام، شاهدت أول أداء للرقص أظهرت فيه فائدة المجموعة براءة فائقة في التعبير عن بعض العواطف عن طريق الحركة. لقد كان التواصل باطنياً عميقاً وليس لفظياً، فقرّرت بعد ذلك بوقت قصير تعلّم دروس في الرقص لتدرك فوراً نداءها الباطني. لم تكن تشعر بالحيوية والقدرة على التعبير إلا حينما تشغل بالرقص. وبعد عدّة سنوات تمكّنت من ابتكار شكل جديد كلياً من الرقص، وإحداث ثورة في هذا الفن.

في بعض الأحيان قد لا يظهر الميل في شيء مادي أو نشاط ما، بل قد ينقدح زناده بشيء من الثقافة مُحدّثاً اتصالاً عميقاً. نشأ عالم الأنثروبولوجيا واللغات المعاصر دانيال إيفرت

(المولود عام 1951م) في منطقة على الحدود الفاصلة بين ولاية كاليفورنيا ودولة المكسيك، في بلدة يسكنها رعاة البقر. ومنذ صغره كان يجد نفسه مشدوداً نحو الثقافة المكسيكية من حوله. كان كل شيء متعلق بهذه الثقافة محل إعجابه وافتتانه: صوت الكلمات التي يتحدث بها العمال المهاجرون، والطعام، والعادات وأنماط السلوك التي كانت تختلف كثيراً عن الثقافة الأمريكية. فغمر نفسه قدر ما يستطيع في لغتهم وثقافتهم، وتحول هذا الميل إلى اهتمام دام مدى الحياة بـ«الآخر»؛ أي تنوع الثقافات في العالم وما يعنيه ذلك عن تطورها.

قد يأتي الكشف عن ميول المرء الحقيقية أحياناً عن طريق لقاء مع رئيس فعلي. فحين كان جون كولترين (1926م- 1967م) صبياً صغيراً في ولاية كارولينا الشمالية انتابه شعور بأنه شخص يختلف عن أقرانه، كأنه غريب عمّن حوله. فكان أكثر جدية من زملائه في المدرسة، وكانت تتنابه أشواق عاطفية وروحانية لم يعرف كيف يُعبّر عنها، فانساق إلى المزيد من الموسيقى، وأصبحت هواية له، فتعلم العزف على آلة الساكسفون، وانضم إلى الفرقة الموسيقية في مدرسته الثانوية. بعد ذلك بسنوات عدة شاهد أداءً حياً لموسيقار الجاز الشهير عازف الساكسفون تشارلي بيرد باركر، فلامست الموسيقى الصادرة عن باركر أعماق كولترين في الصميم. إنه شيء أساسي وشخصي جاء عن طريق ساكسفون باركر، صوت من الأعماق. وفجأة رأى كولترين الوسائل التي يمكنه التعبير بها عن تفرّده، وتكوّن الصوت الذي يُعبّر عن أشواقه الروحانية، ثم بدأ ممارسة العزف على الآلة بوجودان وُلِه حتى إنه استطاع في غضون عقد من الزمن أن يُحوّل نفسه إلى أعظم عازف لموسيقى الجاز في عصره.

تذكّر: لكي تبلغ درجة الإتقان في حقل ما يجب أن تحب الموضوع الذي ترغب في إتقانه، وأن تشعر باتصال عميق به، ويجب أيضاً أن يفوق اهتمامك الحقل نفسه إلى الحد الذي نجده في الإخلاص الديني. فعند أينشتاين لم يكن الأمر متعلقاً بالفيزياء، بل بافتتانه بالقوى الخفية التي تحكم الكون. أمّا بالنسبة إلى بيرجمان فلم يكن الفيلم هو الذي أحدث تحولاً في مسار حياته، بل الإحساس الناتج من بث الحياة والحركة في الصور والمشاهد. وأمّا كولترين فلم تُؤثّر فيه الموسيقى، وإنما إعطاء صوت للمشاعر الجامحة. إن ميول مرحلة

الطفولة هذه يصعب وصفها بالكلمات، وهي أشبه بالأحاسيس، مثل: التعجب الشديد، واللذة الحسية، والقوة، والوعي المضاعف. وتكمن أهمية تعرّف هذه الميول غير الكلامية في أنها مؤشرات واضحة لميول طبيعية غير متأثرة برغبات الآخرين؛ فهي ليست شيئاً غرسه الآباء فيك يعتمد على الكلام والإدراك. ونظرًا إلى أنها قادمة من مكان أعمق؛ فلا يمكن لها أن تكون إلاّ منك تحديدًا، فهي أصداء تركيبتك الكيميائية الفريدة.

حينما تنمو وتصبح أكثر تعقيدًا ستفقد - في كثير من الأحوال - الاتصال بالإشارات القادمة من لبّ جوهرك الأساسي؛ ذلك أن هذه الإشارات يسهل أن تندثر تحت كل الموضوعات الأخرى التي درستها. وقد يعتمد مستقبلك وقوتك على إعادة الاتصال بهذه النواة والعودة إلى أصولك. ولهذا يجب أن تحفر وتُتَقَّب عن علامات تدل على مثل هذه الميول في السنوات الأولى من حياتك. يتعيّن عليك أن تبحث عن آثار في الاستجابات القادمة من الأعماق تجاه شيء بسيط، أو عن رغبة في تكرار نشاط لا تشعر من تكراره بالتعب، أو موضوع استثار فيك درجة غير عادية من الفضول، أو شعور بالقوة كان مصاحبًا لفعل معيّن. إنها حقًا موجودة في داخلك، ولا توجد حاجة إلى إيجاد أيّ شيء؛ فكل ما عليك فعله هو أن تُتَقَّب لتجد - من جديد - ما كان مدفونًا داخلك منذ زمن بعيد. فإذا أعدت الاتصال بهذه النواة الأساسية في أيّ سنّ فإنّ بعض عناصر تلك الجاذبية البدائية ستنبعث فيها شرارة الحياة مرةً أخرى، لتشير إلى مسار يقودك في نهاية المطاف إلى «مهمة حياتك».

2. اشغل الموقع المثالي الأنسب لك

أ. منذ طفولته التي كانت في مدينة مدراس الهندية أواخر خمسينيات القرن الماضي، كان راماشاندران يعلم أنه شخص مختلف؛ إذ لم يكن يولي اهتمامًا للألعاب الرياضية أو غيرها مما هو معهود في الأولاد الذين هم في سنّه، بل كان يحب القراءة في كتب العلوم. وفي وحدته كان يسير على طول الشاطئ، وسرعان ما ينجذب إلى الأنواع المدهشة للأصداف التي جرفتها الأمواج إلى الشاطئ، ويبدأ بجمعها ودراستها دراسة مفصّلة؛ فمنحه ذلك شعورًا بالقوة. فما نحن أمام حقل اكتسبه كله لنفسه؛ فلا أحد في

المدرسة يمكن أن يعرف مطلقاً مقدار ما يعرفه راماشاندران عن الأصداف، ثم ما لبث أن انجذب إلى أغرب أنواع الأصداف البحرية، مثل النوع المعروف باسم زنفورا (حمالة الغرباء)، وهي صدفة تجمع الأصداف المتروكة لكي تستخدمها في التمويه عن نفسها. وبطريقة ما، كان راماشاندران حالة شاذة كتلك الصدفة الغريبة. ففي الطبيعة، تُسهِم هذه الحالات الشاذة في تحقيق غاية تطورية كبيرة؛ إذ تؤدي إلى تبوؤ خصيصة بيئية جديدة، لتُحقّق بها فرصة أكبر للبقاء حيّةً، فهل يمكن لراماشاندران أن يقول الشيء نفسه عن غرابته؟

على مر السنين، نقل راماشاندران اهتمام الصبا هذا إلى موضوعات أخرى، مثل: التشوهات التشريحية لدى الإنسان، والظواهر الغريبة في الكيمياء، وهلمّ جراً. فأقنعه والده (كان يخشى أن ينتهي المطاف بابنه إلى البحث في الحقول الباطنية الغامضة والغريبة) بالتسجيل في كلية الطب؛ ففيها سيتعرّض لجوانب العلوم جميعها، وسيخرج من ذلك بمهارات عملية. وقد امتثل راماشاندران لنصيحة أبيه.

صحيح أن الدراسات التي أجريت في كلية الطب كانت محل اهتمامه، بيد أن الضجر بدأ يملكه بعد حين. لقد كان يكره أي نوع من أنواع التعليم القائم على الحفظ، وكان يريد القيام بالتجارب والاستكشاف، لا الحفظ عن ظهر قلب. فبدأ يقرأ مختلف أنواع المجلات العلمية والكتب التي لم تكن على قائمة القراءة، مثل كتاب (العين والدماغ) للعالم المتخصّص في علم الأعصاب البصري ريتشارد جريجوري. وما أثار اهتمامه وفضوله في هذا الكتاب خاصة هو التجارب المتعلقة بالخداع البصري والبقع العمياء (تشوهات في النظام البصري يمكنها أن تُفسّر شيئاً عن كيفية عمل الدماغ).

مُحفّزاً بما قرأه في هذا الكتاب، أجرى راماشاندران تجاربه الخاصة، وتمكّن من نشر نتائجه في مجلة علمية مرموقة، وهو ما أسفر عن دعوته لدراسة علم الأعصاب البصرية في قسم الدراسات العليا بجامعة كامبريدج، فقبل الدعوة متحمّساً لأنها فرصة سانحة لتحقيق هدف أكثر تناسباً مع اهتماماته. ولكن، بعد بضعة أشهر قضاها في الجامعة، أدرك أنه لا يتآلف مع هذه البيئة، وأنها ليست مناسبة له؛ إذ كان العلم في أحلام صباه مغامرة رومانسية

كبيرة، أشبه ما تكون بالسعي الديني عن الحقيقة. أمّا في كامبريدج فالعلم، بالنسبة إلى الطلاب وأعضاء هيئة التدريس، هو أشبه بالوظيفة؛ إذ توجد ساعات دوام تلتزم بها، وتُقدّم إسهامك البسيط ببعض التحليل الإحصائي، وهذا هو كل ما في الأمر.

استمر في مسيرته في الجامعة باحثًا عن اهتماماته الخاصة في القسم حتى أكمل دراسته. وبعد سنوات قليلة عُيّن أستاذًا مساعدًا في علم النفس البصري بجامعة كاليفورنيا في سان دييغو. ومثلما حدث معه مرارًا من قبل، لم تمضِ سنوات حتى بدأ عقله ينساق نحو موضوع آخر كان هذه المرة دراسة الدماغ نفسه. فقد أصبح مأسورًا بظاهرة الأطراف المتخيلة (من بُيرت ذراعه أو ساقه، لكنه مع ذلك يشعر بألم في الطرف المبتور)، وتابع إجراء التجارب في موضوعات الأطراف المتخيلة، وقد أفضت هذه التجارب إلى بعض الاكتشافات المثيرة عن الدماغ نفسه، فضلًا عن طريقة مبتكرة جديدة لتخفيف آلام هؤلاء المرضى.

وفجأة تلاشى شعوره بعدم التوافق، وذهب ضجره. وأصبحت دراسة الاضطرابات العصبية الشاذة هي الموضوع الذي يمكن أن يبذل بقية حياته له. لقد أثار هذه الموضوع الأسئلة التي أسرّت لُبّه عن التطور، والوعي، وأصل اللغة، وما شابه ذلك. وبدا الأمر كما لو أنه قد عاد من حيث بدأ إلى الأيام التي كان يجمع فيها أغرب أشكال الأصداف البحرية. لقد كان ذلك هو موقعه المثالي الأنسب له، الموقع الذي يستطيع أن يمسك بناصيته سنوات قادمة، ويتوافق مع أعمق ميوله، ويكون عمله فيه أفضل خدمة في سبيل التقدم العلمي.

ب. كانت مرحلة الطفولة بالنسبة إلى يوكي ماتسوكا وقتًا حافلًا بالارتباك والضبابية. ففي أثناء نشأتها في اليابان في سبعينيات القرن الماضي، كان كل شيء يبدو أنه أُعدّ لها سلفًا؛ فالنظام المدرسي سيضعها في أحد الحقول التي تناسب الفتيات، وكانت الاحتمالات المتوافرة في ذلك ضيقة. دفعها والداها إلى رياضة السباحة التنافسية في سنٍّ مبكرة جدًا إيمانًا منهما بأهمية الرياضة في تنميتها، وشجّعها أيضًا على تعلّم العزف على آلة البيانو. ربما يبدو الأمر مريحًا بالنسبة إلى غيرها من الأطفال في اليابان أن تكون الحياة مُوجّهة على هذا النحو، ولكنه كان مؤلمًا ليوكي؛ فقد كان لديها اهتمام بمختلف الموضوعات، ولا سيما الرياضيات والعلوم، وكانت تحب الرياضة ما عدا السباحة، ولم

يكن لديها فكرة عمّا تريد أن تصبح مستقبلاً، أو كيف يمكنها إيجاد موقعها المناسب في عالم يتصف بهذه الصرامة.

لما بلغت سنّ الحادية عشرة بدأت أخيراً تؤكد ذاتيتها، فمارست ما يكفي من السباحة، وأرادت أن تنتقل إلى رياضة التنس. وقد أجاز والداها تلك الرغبة. ونظراً إلى حماسها الشديد ومناقستها على المراكز الأولى؛ فقد كان لديها أمل كبير في أن تصبح لاعبة تنس مرموقة، ولكن بدايتها في هذا الرياضة جاءت متأخرة نوعاً ما. وللتعويض عمّا فاتها من سنوات التدريب كان عليها أن تخضع لجدول زمني صارم من الممارسة والتدريب المكثّف بما يشبه المستحيل؛ فقد كانت تسافر بالقطار خارج طوكيو للتدريب، وفي رحلة العودة ليلاً تحل الواجب المدرسي البيتي. وفي كثير من الأحيان كانت تضطر إلى الوقوف في عربة القطار المزدحمة بالركاب، فكانت تتناول كتاب الرياضيات أو كتاب الفيزياء لتحل المعادلات. كانت تحب حلّ الألغاز، وفي أثناء قيامها بحل الواجب البيتي كان عقلها ينهمك كلياً في المسائل إلى الحد الذي يفقدها الشعور بمرور الوقت. وبطريقة غريبة، كان ذلك الإحساس يشابه الإحساس الذي تشعر به في ملعب التنس؛ التركيز العميق بحيث لا يمكن لأيّ شيء أن يصرفها عمّا هي فيه.

في بعض أوقات الفراغ كانت يوكي -وهي على متن القطار- تفكّر في مستقبلها. كانت العلوم والرياضة هما محل اهتمام كبير في حياتها؛ ففيهما كانت تُعبّر عن مختلف جوانب شخصيتها، مثل: حبها للمنافسة، والعمل بيديها، والتحرك برشاقة، وتحليل المشكلات وحلها. تُحتمّ عليك الظروف في اليابان أن تختار مهنة اختصاصها ضيق نوعاً ما. ولهذا فأيّ شيء تختاره يتطلّب منها التضحية باهتماماتها الأخرى، وهو ما سبّب لها الاكتئاب إلى ما لا نهاية. وفي أحد الأيام تخيلت في حلم من أحلام اليقظة اختراع رجل آلي (روبوت) يمكن أن تنافسه في لعبة التنس. إن اختراع روبوت كهذا ومناقشته باللعب سيسبب الحاجات المتعددة لجوانب شخصيتها المختلفة، ولكنه كان حلمًا فحسب.

بالرغم من ارتقائها في رياضة التنس ومناقستها أفضل اللاعبين في اليابان فإنها سرعان ما أدركت أن مستقبلها ليس في هذه الرياضة؛ ففي التدريب لم يكن أحد ليتهاق

عليها، ولكنها في المسابقات كانت غالباً تجمد عن الحركة، وتبالغ في التفكير في وضعها، وتخسر مقابل لاعبات أقل منها شأنًا، فضلًا عمَّا كابدته من بعض الإصابات الموهنة، فرأت أن تُركِّز على الدراسة لا على الرياضة. وبعد التحاقها بأكاديمية التنس في ولاية فلوريدا، أقنعت والديها بالسماح لها بالبقاء في الولايات المتحدة الأمريكية وتقديم طلب للالتحاق بجامعة كاليفورنيا في بيركلي.

في بيركلي لم تستطع أن تستقر على تخصص يناسبها؛ إذ لم تجد من بين الخيارات ما يلائم اهتماماتها واسعة النطاق. ونظرًا إلى عدم وجود أي خيار أفضل؛ فقد استقرت على اختيار الهندسة الكهربائية. وفي أحد الأيام أُسْرَتْ لأحد أساتذتها في القسم عن حلمها أيام الصبا في بناء (روبوت) يستطيع لعب التنس. وقد أدهشها جدًا أن الأستاذ لم يضحك مما سمع، بل دعاها لتتضم إلى مختبر الدراسات العليا للروبوتات. وقد أظهر إسهامها في بحوث المختبر ما يدل على مستقبل واعد لها في هذا المجال، حتى إنها قُبِلت لاحقًا في برنامج الدراسات العليا في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، لتلتحق بمختبر الذكاء الاصطناعي للروبوتات بإشراف رودني بروكس أبرز الرواد في هذا الحقل. وكان طاقم المختبر عاكفين على تطوير روبوت يتمتع بالذكاء الاصطناعي، فتطوّعت ماتسوكا لتصميم اليد والذراع.

منذ كانت يوكي ماتسوكا صبية حرصت على تأمل يديها حين كانت تلعب التنس أو البيانو، أو في أثناء كتابتها معادلات الرياضيات. كانت يد الإنسان معجزة في التصميم. وبالرغم من أن هذا لم يكن تحديدًا من قبيل الرياضة، فإنها ستعمل بيديها لصنع اليد. وبعد أن عثرت أخيرًا على شيء يلائم النطاق الأوسع لاهتماماتها فإنها عملت ليلاً ونهارًا في بناء نوع جديد من الأطراف الروبوتية؛ نوع يملك أكبر قدر مستطاع من قوة التحكم الحساسة في يد الإنسان، فجاءت بتصميم أبهر بروكس؛ إنه تصميم فاق بسنوات عدّة أي نموذج صمّمه أحد من قبل.

بعد أن شعرت أن لديها نقصًا حادًا في جوانب المعرفة بهذا الاختصاص، قرّرت الحصول على درجة علمية في علم الأعصاب. فإذا تمكّنت من فهم العلاقة بين اليد والدماغ فهما جيدًا فإن بإمكانها تصميم أطراف اصطناعية قادرة على الشعور والاستجابة مثل يد الإنسان. وقد

تابعت هذه العملية، مضيفاً حقولاً جديدةً من العلوم إلى سيرتها الذاتية، لتُتَّوَّج ذلك بتأسيسها حقلاً جديداً كلياً من المعرفة، أطلقت عليه اسم علم أعصاب الروبوتات، وهو يُعنى بتصميم روبوتات تملك جهاز أعصاب يحاكي الجهاز العصبي للإنسان، ما يجعلها أقرب إلى الحياة. إن بدء العمل في هذا المجال الجديد جلب لها نجاحاً عظيماً في مجال العلم، ووضعها في الموقع النهائي للسلطة، وهو القدرة على الجمع بين مختلف اهتماماتها بحرية.

إن عالم المهن يماثل النظام البيئي؛ إذ يتبوأ فيه الأشخاص حقولاً معينة تُحتم عليهم التنافس مع الآخرين على الموارد من أجل البقاء. وكلما زادت أعداد الناس في بقعة ما ازدادت معها صعوبة الرخاء والتقدم فيها. علماً بأن العمل في هذا الحقل سيؤدي إلى استنزاف طاقتك في خضم الصراع للحصول على الانتباه، واستخدام المناورات السياسية من أجل الفوز بالموارد الشحيحة لنفسك. إنك تصرف الكثير من الوقت في هذه المنافسة بحيث لا يتبقى لديك وقت لتحقيق الإتقان الصحيح. لقد استدرجت إلى هذا الحقل لأنك رأيت الآخرين يسلكون الدرب المألوف، لكنك لا تدرك كم ستكون الحياة صعبة عندئذٍ.

إن اللعبة التي تريد أن تلعبها مختلفة، وهي البحث في البيئة عن موقع مناسب لك يمكنك السيطرة عليه، ولكن ليس بالأمر السهل أبداً أن تجد مثل هذا الموقع. إنه يحتاج إلى كثير من الصبر، واتباع إستراتيجية معينة. بدايةً، يتعين عليك أن تختار الحقل الذي يتوافق تقريباً مع اهتماماتك (مثل: الطب، أو الهندسة الكهربائية)، ثم الانطلاق في أحد اتجاهين؛ الأول: مسار راماشاندران. فمن داخل الحقل الذي اخترته يمكنك البحث عن المسارات الجانبية التي تجد نفسك منجذباً إليها بوجه خاص (في حالة راماشاندران كانت علم الإدراك والبصريات). وحين تكون الفرصة ممكنة تستطيع الانتقال إلى الحقل الأضيق، وتستمر بهذه العملية حتى تصل - في نهاية المطاف - إلى موقع غير مأهول تماماً، وكلما كان الحقل أضيق كان ذلك أفضل. وبطريقة ما، يتوافق هذا الموقع مع خصيصتك الفردية بقدر توافق ميول راماشاندران الفريد إلى علم الأعصاب مع شعوره الأولي في طفولته بالاستثنائية.

الاتجاه الثاني: مسار ماتسوكا. فما أن تتقن حقلك الأول (الروبوتات) حتى يمكنك البحث عن موضوعات أخرى أو مهارات يمكنك اكتسابها (علم الأعصاب) في أوقاتك

الخاصة إذا لزم الأمر، وتستطيع الآن أن تضم هذه المعرفة الجديدة لهذا الحقل إلى حقلك الأصلي، وربما توجد حقلاً جديداً، أو تربط - على الأقل - بين الحقلين، ثم تستمر في هذه العملية بقدر ما ترغب (في حالة ماتسوكا، لم تتوقف عن التوسع). وفي نهاية المطاف ستُنشئ حقلاً فريداً خاصاً بك. يُذكر أن هذا الاتجاه يتناسب تماماً مع الثقافة التي تكون فيها المعلومات متوافرة على نطاق واسع، ويكون الربط بين الأفكار شكلاً من أشكال القوة. قد تجد في أي من الاتجاهين مكاناً مناسباً غير مزدحم بالمنافسين، ولك فيه حرية التجول، ومتابعة القضايا التي تهتمك؛ فأنت الذي تضع جدول أعمالك الخاصة، وتملك مفاتيح المصادر المتوافرة في هذا الموقع. ومع تحريك من أعباء المنافسة العاتية ومن جهود الترويج لنفسك، سيتوافر لديك الوقت والمساحة لكي تُحقق «مهمة حياتك».

3. تجنب المسار الخطأ (إستراتيجية التمرد)

في عام 1760م، بدأ ولفغانغ أماديوس موزارت وهو في سن الرابعة تُعلم العزف على آلة البيانو بإشراف والده. وولفغانغ هو الذي طلب بدء الدروس في هذه السن المبكرة؛ إذ كانت أخته التي عمرها سبع سنوات قد بدأت فعلاً العزف على هذه الآلة. وربما كان من أسباب هذه المبادرة التنافس المعهود بين الأخوة، ولا سيما بعد أن رأى الاهتمام والحُب الذي تحظى به أخته لعزفها فأراد مثله لنفسه.

وبعد الأشهر القليلة الأولى من الممارسة أدرك والده ليوبولد، وهو عازف موهوب، ومُلمح، ومُعلم أن ولفغانغ كان بارعاً على نحو استثنائي. والأكثر غرابة لطفل في عمره هو أنه كان يحب الممارسة؛ إذ كان والداه يضطرون في الليل إلى جرّه بعيداً عن البيانو. وقد بدأ تأليف مقطوعاته الموسيقية وهو في سن الخامسة، وما لبث ليوبولد بعد ذلك إلا أن اصطحب هذا الطفل المعجزة وأخته في رحلة يزورون فيها العواصم الأوروبية جميعها لأداء حفلات عزف موسيقي فيها. أذهل ولفغانغ الجماهير الملكية الذين كان يعزف لهم؛ إذ كان يعزف بثقة عالية، واستطاع عزف مختلف أنواع الألحان الذكية ارتجالاً. لقد كان كاللعبة الثمينة، وأصبح الأب الآن يكسب دخلاً جيداً لأسرته مع ازدياد طلبات القصور لرؤية عبقرية هذا الطفل بأمر أعينهم في أداء حي.

ولمّا كان ليوبولد هو ربّ الأسرة فقد طلب إلى أولاده أن يطيعوه طاعة مطلقة، حتى لو كان الفتى الصغير ولفغانغ هو الذي يعيل الأسرة كلها. استجاب ولفغانغ عن طيب خاطر لطلب والده، فكيف يرفض ووالده هو صاحب الفضل في كل شيء. ولكن، ما إن أصبح في سنّ المراهقة حتى بدأ شيء يثور في داخله، فهل كان العزف على البيانو هو ما يستمتع به أم إنه جذب اهتمام الآخرين فحسب؟ إزاء هذا التساؤل بدأ يشعر بالتشويش والحيرة. وبعد سنوات عديدة من تأليف الموسيقى أصبح أخيراً يُطوّر أسلوبه الخاص، ومع ذلك فقد كان والده يصر على التزام المعزوفات التقليدية والتركيز عليها؛ لأنها تسر المستمعين في القصور الملكية وتجلب المال للأسرة. كانت مدينة سالزبورغ، حيث كانوا يعيشون، مدينة صغيرة، أهلها من الطبقة الوسطى. وعلى العموم، كان ولفغانغ يتوق إلى شيء آخر؛ أن يكون مستقلاً بنفسه، ومع مرور كل سنة كان يتزايد شعوره بالضيق.

وأخيراً، في عام 1777م، سمح الأب لولفغانغ - الذي بلغ واحداً وعشرين عاماً - بالمغادرة إلى باريس برفقة والدته. وفيها أخذ يحاول كسب مكانة بارزة له بوصفه عازفاً؛ لكي يتمكن من الاستمرار في مساعدة عائلته، ولكن ولفغانغ وجد أن باريس لا تروق له؛ إذ كانت الوظائف التي عُرضت عليه دون مستوى مواهبه، ثم إن والدته أصيبت فيها بالمرض، وتوفيت في طريق عودتهما إلى الوطن. كانت الرحلة إلى باريس كارثة حقيقية بالنسبة إلى ولفغانغ، فعاد إلى سالزبورغ خائباً نادماً مستعداً للخضوع لإرادة والده، وقبيل العمل في موقع رتيب بعض الشيء عازفاً على آلة الأورغ، لكنه لم يستطع أن يكبت تماماً عدم ارتياحه؛ فكان يشعر بالإحباط من قضاء حياته في هذا الموقع دون المتوسط، يُؤلف الموسيقى لإرضاء هذه الضواحي الصغيرة. وذات مرة كتب إلى والده: «أنا مُلحّن... ولا يمكنني ولا ينبغي لي أن أدفن موهبتي في التلحين التي أنعم بها عليّ الإله وأجزل بفضله».

كان ردُّ فعل ليوبولد يتسم بالغضب تجاه هذه الشكاوى المتكررة على نحو متزايد من ابنه، مُذكراً إياه بما أسدى إليه من إحسان في التدريب، وما أنفقه من مصاريف على عدد لا يحصى من رحلات السفر. ولكن أخيراً، وبومضة خاطر أضاءت لولفغانغ ما كان خافياً، اعترف أنه لم يكن حقاً يعيش العزف على البيانو، ولا حتى الموسيقى نفسها؛ إنه لم يكن

يستمتع بالعزف كالدمية في حضور الآخرين، بل كان تأليف الموسيقى هو مصيره الذي قُدِّرَ له. والأكثر من ذلك أنه أحب المسرح حبًّا شديدًا. لقد كان يريد تأليف الأوبريت، فهذا هو صوته الحقيقي، ولم يكن ليدرك ذلك لو أنه بقي مقيمًا في سالزبورغ. لقد كان والده يُمثِّلُ أكثر من عقبة في طريقه، بل كان - حقيقةً - سببًا في تدمير حياة ابنه، وصحته، وثقته بنفسه. لم يكن الأمر قاصرًا على المال؛ فقد كان أبوه يغار من موهبة ابنه. وسواء بوعي كان ذلك أو من دونه، فإنه كان يحاول لجمه ومنع تقدُّمه؛ لذا تعيَّن على ولفغانغ أن يخطو خطوة، مهما كانت مؤلمة، قبل فوات الأوان.

في رحلة إلى فيينا عام 1781م، اتخذ ولفغانغ قرارًا مصيريًّا بالبقاء فيها، وعدم العودة إلى سالزبورغ. لم يغفر له والده هذه الفعل كما لو أنه اقرن بعض الموبقات العظيمة؛ لقد تخلَّى ابنه عن الأسرة، وقد بقي هذا الصدع بينهما من دون إصلاح، ولكن ولفغانغ الذي شعر أنه أضاع الكثير من الوقت تحت هيمنة والده بدأ يؤلِّف الموسيقى بوتيرة جنونية، فكانت أشهر أعمال الأوبرا ومقطوعاتها الموسيقية تتدفق منه كما لو كان مصابًا بمسٍّ من الجن.

إن المسار الخادع في الحياة هو دائمًا شيء تنجذب إليه لأسباب غير حقيقية، مثل: المال، والشهرة، وجذب انتباه الآخرين، وهلمَّ جَرًّا. فإذا كان الاهتمام هو ما نحتاج إليه فإننا نشعر - في كثير من الأحوال - بنوع من الفراغ داخلنا، ونأمل أن نملأه بهذا الحب الزائف القادم من استحسان العامة. ولأن الحقل الذي نختاره لا يتوافق مع ميولنا الداخلية العميقة؛ فإننا قلَّمنا نجد فيه إشباعًا لما نصبو إليه. وعندئذٍ، سيعاني عملنا بسبب ذلك، ثم يبدأ الاهتمام الذي حصلنا عليه بدايةً بالتلاشي، وهي عملية مؤلمة. إذا كان المال والراحة هما المهيمان على قرارنا فإننا نتصرف غالبًا في ذلك بدافع من القلق والحاجة إلى إرضاء أبويننا اللذين قد يوجهاننا نحو شيء مُدِرُّ للربح انطلاقًا من حرصهما علينا واهتمامهما بنا، وقد يكون خلف ذلك شيء آخر؛ شيء من الغيرة لأننا نملك من الحرية أكثر مما كان لديهم حين كانوا صغارًا.

يجب أن تعتمد إستراتيجية من شقين؛ الأول: أن تدرك في أقرب وقت ممكن أنك اخترت مهنتك لأسباب غير صحيحة، قبل أن تتعرَّض ثقتك لصدمة. والثاني: أن تتشط في

التمرد على هذه القوى التي دفعتك بعيداً عن مسارك الحقيقي، وأن تزدري نوازع النفس في جلب اهتمام الآخرين واستحسانهم، وهذا سيقودك إلى ضلال بعيد. يتعيّن عليك أن تشعر بالغضب والاستياء من ضغوط الأبوبين التي تسعى إلى حملك على مهنة غريبة عنك. إن سعيك نحو الاستقلال عن والديك وتأسيس هويتك الخاصة هو جزء صحي من تميّتك. دع إحساسك بالتمرد يملؤك بالطاقة والهدف. وإذا كان هذا الذي يعرقل طريقك هو شخصية الأب، ليوبولد موزارت، فعليك أن تنهي وجوده وتفتح الطريق.

4. اترك الماضي (إستراتيجية التكيف)

كان فريدي رونش منذ ولادته عام 1960م مُهيئاً ليكون بطلاً في الملاكمة، وكان والده ملاكماً محترفاً، وأُمّه حكم ملاكمة. بدأ الأخ الأكبر لفريدي تعلّم هذه الرياضة في سنّ مبكرة، وعندما بلغ فريدي سنّ السادسة بدأ من فوره بالذهاب إلى صالة الالعاب الرياضية المحلية في جنوب مدينة بوسطن لبدء تدريبات صارمة في الملاكمة، فكان يتدرّب على يد مُدربّه عدّة ساعات يومياً، ستة أيام في الأسبوع.

وما إن بلغ سنّ الخامسة عشرة حتى بدأ يشعر بالاستنزاف، فأخذ يختلق المزيد من الأعذار لتجنّب الذهاب إلى صالة الالعاب الرياضية. وفي أحد الأيام أحسّت أمّه بهذا فقالت له: «لماذا اخترت هذه الرياضة أصلاً؟ إنك تتلقّى اللكمات دائماً، فأنت لا تقدر على الملاكمة». كان فريدي قد اعتاد سماع النقد المستمر من والده وإخوته، ولكن أن يسمع مثل هذا التقييم الصريح من والدته فذلك له تأثير مُدوّ. فمن الواضح أنها كانت ترى في شقيقه الأكبر أنه الأنسب لتبوؤ مكانة عظيمة في حلبات الملاكمة. والآن بعد سماعه ذلك، قرّر فريدي أن يُثبِت بطريقة أو بأخرى أن أمه أخطأت الرأي. فعاد إلى نظام التدريب بروح التحدي، واكتشف في نفسه شغف الممارسة والانضباط. كان يستمتع بالشعور بالتحسن، وبدأت الجوائز التي يحصل عليها تتراكم. وأكثر من أيّ شيء آخر، فإنه الآن يستطيع حقاً أن يهزم شقيقه. لقد اشتعل من جديد حُبّه لهذه الرياضة.

بعد أن أظهر فريدي أنه صاحب الموهبة الواعدة مقارنةً بإخوته، سار به والده إلى لاس فيغاس لكي يساعده على مواصلة مسيرته. وفيها، وهو في سن الثامنة عشرة، التقى المُدرَّبَ الأسطوري إدي فْتَش، وبدأ يتدرَّب بإشرافه. بدا كل شيء واعدًا جدًّا؛ فقد اختير فريدي ليكون ضمن فريق الملاكمة للولايات المتحدة الأمريكية، وبدأ بعدها بتسلسل المراتب. ومع ذلك، لم يمضِ وقت طويل حتى اصطدم بجدار آخر. لقد كان يتعلَّم أكثر المناورات فاعلية من فْتَش ويمارسها حتى درجة الكمال، ولكن حين يتعلق الأمر بمواجهة فعلية تختلف الأمور؛ فما إن يدخل الحلبة حتى يعود إلى أسلوبه القديم من دون وعي، وسرعان ما يفقد السيطرة على عواطفه والتحكم في نفسه، فكانت مواجهاته تتحوَّل إلى مشاجرات خلال جولات اللقاء، وكان كثيرًا ما يخسر فيها.

بعد بضع سنوات أخبره المُدرَّب فْتَش أنه قد حان له أن يعتزل، ولكن الملاكمة كانت هي كل ما في حياته؛ «اعتزل ثم أفلع ماذا؟». استمر فريدي في الملاكمة، وتوالى مسلسل الهزائم حتى بدت له أخيرًا علامات النهاية، وأنه لا جدوى من الاستمرار، فقرَّر الاعتزال. بعد ذلك استطاع تأمين وظيفة يقتات منها في التسويق عن طريق الهاتف، وها هو الآن يكره الملاكمة؛ فقد أعطاه الكثير، لكنه لم يحصل منها سوى القليل. في أحد الأيام، وبخطى مُتردِّدة عاد إلى صالة الألعاب الرياضية التي يُدرَّب فيها فْتَش لمشاهدة صديقه فيرجيل هيل وهو ينازل أحد الملاكمين قبل أيام من اللقاء الرسمي في المواجهة التي ستُحدِّد حامل اللقب. كان كلا اللاعبين قد تدرَّب على يد فْتَش، ولكن لم يوجد أحد في زاوية هيل يُقدِّم له الدعم والمساعدة، فقام فريدي بهذه المهمة، وكان يجلب له الماء، ويُسدي إليه النصيحة. جاء فريدي في اليوم التالي لمساعدة هيل مرةً أُخرى، ثم ما لبث أن أصبح من المواظبين على الحضور في الصالة الرياضية. لم يكن يتلقَى أيَّ مقابل مادي، لذلك أبقى على وظيفته في التسويق الهاتفي، ولكن شيئًا داخله أحس بالفرصة، ولا سيما أنه كان في أمسِّ الحاجة إلى أيِّ عمل. كان يأتي في الوقت المُحدَّد ولا يغادر قبل الآخرين. وبسبب معرفته بمنهج فْتَش وطرائقه في التدريب فقد كان بإمكانه تعليمها للملاكمين كافة في الحلبة. لقد بدأت مسؤوليته بالنمو.

لم يكن فريدي - في قرارة نفسه- قادرًا على زحزحة استيائه من الملاكمة، وكان يشك في مقدار المدة التي سيستمر فيها في التدريب قبل أن يُغيّر رأيه نحو شيء آخر. فالمنافسة في مهنة التدريب قاسية لا هوادة فيها، ونادرًا ما استمر مُدربٌ في عمله طويلاً في هذا المجال. فهل سيتحوّل عمله هذا إلى مهنة رتيبة يُكرّر فيها إلى ما لا نهاية التمارين نفسها التي تعلّمها من فتّش؟ كان بعض منه يتوق إلى العودة إلى الملاكمة؛ فعلى الأقل لم تكن الملاكمة على هذه الدرجة من التوقُّع والملل.

في أحد الأيام أراه فيرجيل هيل أسلوبًا في الملاكمة كان قد تعلّمه من بعض الملاكمين الكوبيين؛ فبدلاً من استخدام كيس اللكم في التدريب كانوا يمارسون الملاكمة مع المُدرب الذي يرتدي قفّازين مُبطّنين بحشوة كبيرة. كان التدريب في حلبة الملاكمة بوجود المُدرب والمُتدريين، فيتمرنّ الملاكم على الطرائق والأساليب الخاصة باللكمات المُوجّهة نحو قفّازي المُدرب. جرّب فريدي هذه الطريقة مع هيل، فاستحسنها، وبعثت في نفسه البهجة. لقد أعادته إلى الحلبة مرةً أُخرى، ولكن كان يوجد شيء آخر. فالملاكمة في نظره باتت بالية وفاقدة بريقها، وكذلك الحال بالنسبة إلى أساليب التدريب خاصتها، فخطر لذهنه أن يبتكر وسيلة تُستخدم فيها القفايز لما هو أكثر من توجيه اللكمات؛ إذ يمكن للمُدرب استخدامها وسيلةً لوضع إستراتيجية كاملة في الحلبة، وإثبات هذه الإستراتيجية وعرضها على تلاميذه عملياً بنزال حقيقي. يمكن لهذه الفكرة أن تُحدث تحوُّلاً في عالم الملاكمة، وتعيد الحياة إليه. بدأ فريدي تطوير هذه الفكرة مع تلاميذه الذين يُدرّبهم بانتظام، وكان يُعلّمهم حركات في المناورة أكثر مرونة وأهمية، ثم ما لبث أن ترك العمل مع فتّش ليستقل بالعمل وحده، وسرعان ما اشتُهر عنه تدريب الملاكمين بطريقة أفضل من أيّ مُدربٍ آخر، وما هي إلا سنوات حتى أصبح المُدرب الأكثر نجاحًا في جيله.

أن التعامل مع حياتك المهنية وتغيّراتها الحتمية يوجب عليك أن تفكّر على النحو الآتي: أنت لست مُلزماً بموقع معيّن، وولاؤك ليس لمهنة أو شركة. التزامك هو لمهمة حياتك، وإظهارها بصورتها الكاملة. والأمر يعود إليك في البحث عنها وتوجيهها التوجيه الصحيح. وليس الأمر متروكاً للآخرين لحمايتك أو مساعدتك. ولما كنت أنت القائم بنفسك فإن الأمر

يعود إليك فيما يخص التنبؤ بالتغييرات الحاصلة الآن في مهنتك. يجب عليك أن تكثّف «مهمة حياتك» مع هذه الظروف. لا تتشبّث بالطرائق القديمة في العمل؛ لأن ذلك سيؤخرك قطعاً، ويجعلك تعاني كثيراً. لذلك، كن مرناً على الدوام، ومتطلعاً إلى المواءمة والتكثّف.

إذا كان التغيير قد فرض عليك، كما هي حال فريدي روتش، فاعمل على مقاومة إغراء المبالغة في ردّ الفعل أو الشعور بالأسى على نفسك. لقد وجد روتش طريق العودة إلى الحلبة بحاسته الغريزية؛ لأنه أدرك أن ما كان يحبه ليس الملائمة نفسها، بل الرياضة التنافسية ووضع إستراتيجياتها. وبالتفكير في هذه الطريقة فقد استطاع أن يتكثّف مع ميوله إلى اتجاه جديد داخل حقل الملائمة. ومثلما فعل روتش، فعليك ألا تتخلى عن المهارات والخبرات التي اكتسبتها، وعليك أيضاً أن تجد طريقة جديدة لتطبيقها. ابقِ عينيك على المستقبل لا الماضي، وتذكّر أن هذه التعديلات المبتكرة تفضي غالباً إلى مسار أعلى بالنسبة إلينا؛ فقد انتزَعنا بالقوة من قوقعتنا الآمنة، وأجبرنا على إعادة تقييم اتجاهنا. تذكر أيضاً أن «مهمة حياتك» هي كائن حيٌّ، وأنه في اللحظة التي تتبع فيها - حرفياً وبصرامة - الخطة الموضوعية أيام شبابك فإنك تحبس نفسك في موقع ثابت، وسيخطاك الزمن من دون رحمة.

5. البحث عن طريق العودة (إستراتيجية الحياة أو الموت)

منذ أن كان طفلاً صغيراً جداً كان بكمنستر فولر (1895م-1983م) يدرك أنه يرى العالم بصورة مختلفة عن الآخرين. وُلِد فولر وهو يعاني قصر نظر شديداً. كان كل شيء حوله يبدو مُغْبِشاً، ولذلك تطوّرت حواسه الأخرى للتعويض عن هذا النقص، ولا سيما حاستا اللمس والشم. وحتى بعد أن وُصِف له نظارات طبية في سنّ الخامسة فقد استمر في إدراك العالم حوله بأكثر من حاسة البصر، وتكوّن لديه نوع خاص من الذكاء اللمسي.

كان فولر غلاماً واسع الحيلة جداً؛ إذ اخترع ذات مرة مجذاًفاً من نوع جديد يساعد على زيادة السرعة في أثناء اجتياز البحيرات في ولاية مين حين أمضى الصيف فيها يعمل في توزيع البريد. كان تصميم المجذاف مبنياً على غرار حركة قنديل البحر وفق ما لاحظها ودرسها. وقد استطاع تصوّر ديناميكية حركة قنديل البحر بأكثر من حاسة البصر؛ إذ كان

يشعر بالحركة، فأعاد إنتاج هذه الحركة في مجذافه الجديد الذي عمل بانسياب جميل. وفي كل فصل من فصول الصيف اللاحقة، كان يحلم باختراع مثير آخر، وقد أصبح هذا عمل حياته ومصيره.

وفي المقابل، فإن اختلاف المرء عن الآخرين له جانبه المؤلم؛ إذ لم يكن لديه صبر على الأشكال المعتادة من التعليم. وبالرغم من أنه كان ذكيًا لامعًا واستطاع الدراسة في جامعة هارفارد فإنه لم يستطع التكيّف مع أساليب الجامعة الصارمة في التعليم. فكان يتغيّب عن المحاضرات، ويعيش نمط حياة بوهيمية (متحلّلة من قيم المجتمع) نوعًا ما، فعمد المسؤولون في جامعة هارفارد إلى طرده مرتين، وكان الطرد نهائيًا في المرة الثانية.

بعد ذلك بقي يتنقّل من وظيفة إلى أخرى، فعمل في مصنع لتعليب اللحوم، ثم تمكّن إبان الحرب العالمية الأولى من الحصول على وظيفة في سلاح البحرية. كان لديه إحساس مدهش بالآلات وكيفية عمل أجزائها بتناغم بعضها مع بعض، ولكنه كان لا يهدأ، ولا يستطيع المكوث طويلاً في مكان واحد. بعد الحرب كان لديه زوجة وطفل بحاجة إلى دعمه ورعايته، ولخوفه من عدم القدرة على إعالتهما، قرّر الحصول على وظيفة ذات راتب مُجزٍ، فعمل مديرًا للمبيعات. كان يعمل بجدّ، وأبلى في عمله بلاءً حسنًا، ولكن الشركة أغلقت أبوابها بعد ثلاثة أشهر. لقد شعر بعدم الرضا النفسي من هذه الوظائف، ولكن يبدو أن هذه الوظائف كانت هي كل ما يمكن أن يتوقّعه من الحياة.

أخيرًا، وبعد بضعة أشهر، سنحت له فرصة من حيث لا يتوقّع؛ إذ توصل حموه (والد زوجته) إلى اختراع وسيلة لإنتاج مواد رخيصة تُستخدم في بناء المنازل، وتجعل البناء أكثر متانةً وأفضل عزلاً للحرارة، ولكن حماه لم يجد مستثمرين أو أيّ شخص مستعد لمساعدته على إقامة مشروع تجاري للإفادة من هذا الاختراع. كان فولر يعتقد أن فكرة حميه رائعة، وكان هو نفسه مهتم بمجال الإسكان والهندسة المعمارية، ولذلك اقترح عليه أن يتولى مسؤولية تنفيذ هذه التكنولوجيا الجديدة. وضع فولر كل ما يملك في المشروع، وكان قادرًا على تحسين المواد التي ستستخدم في الإنتاج. لقي فولر الدعم كله من حميه في العمل، وأسس الاثنان نظام ستوكيد للبناء، وقد مكّنهم المال الذي جمعه من المستثمرين (معظمهم

من الأقارب) من فتح مصانع لإنتاج تلك المواد، ولكن الشركة عانت مصاعب مالية؛ إذ كانت تقنية المواد الجديدة حديثة وجذرية جداً وغير معهودة لدى قطاع البناء، وكان فولر على درجة من توخي الكمال، ما جعله يُحجَم عن تقديم أيِّ تنازلات في إحداث تغيير جذري في صناعة البناء والتشييد. وبعد خمس سنوات بيعت الشركة، وفُصل فولر من رئاستها.

والآن بدا الوضع أكثر كآبة من أيِّ وقت مضى. كانت العائلة تعيش حياة هنيئة في شيكاغو بما يتجاوز دخل راتبه. وفي تلك السنوات الخمس لم يكن فولر قد أدخر أيِّ شيء. كان الشتاء على الأبواب، وكانت احتمالات حصوله على عمل جديد ضئيلة جداً؛ فسمعتة المهنية في حال يرثى لها. وفي إحدى الليالي خرج يتمشى وحده على طول شاطئ بحيرة ميشيغان، مُفكِّراً في شريط حياته حتى اللحظة. لقد خيَّب آمال زوجته، وتسبَّب في تبديد أموال حميه وأصدقائه الذين استثمروا في المشروع. لقد كان عديم الفائدة في عمل أيِّ شيء ومثَّل عبئاً على الجميع. وأخيراً قرَّر الانتحار بوصفه الخيار الأفضل، ففكَّر في إغراق نفسه في البحيرة؛ إذ كانت لديه بوليصة تأمين جيدة، وستُقدِّم عائلة زوجته رعاية أفضل لها مما يمكن أن يُقدِّمه هو. وبينما كان يسير إلى الماء أخذ يُهيئ نفسه للموت.

وفجأة أوقفه شيء ما وجعله مُتسمِّراً حيث كان، وقد وصف هذا الشيء لاحقاً بأنه صوت قادم من مكان قريب، أو ربما من داخله. قال الصوت: «من الآن فصاعداً عليك ألا تتنظر أبداً شهادة دنيوية على أفكارك، إنك تفكَّر في الحقيقة، ولست تملك الحق في القضاء على نفسك، إنك لا تملك نفسك، أنت تنتمي إلى الكون، ستبقى أهميتك غامضة عليك إلى الأبد، ولكن لك أن تفترض أن تؤدي دورك إذا ألزمت نفسك بتحويل خبرتك لتحقيق أقصى منفعة للآخرين». ولأنه لم يسبق له أن سمع أصواتاً كهذه من قبل؛ لم يكن ليتصوَّرها إلا شيئاً حقيقياً. ومن ذهوله من هذه الكلمات التفت بعيداً عن الماء متوجِّهاً إلى منزله.

وفي الطريق بدأ يفكِّر في تلك الكلمات وإعادة تقييم حياته، ولكن في منحنى مختلف. ولعل ما اعتقده سابقاً خطأ ارتكبها لم تكن أخطاء قط. لقد حاول أن يضع نفسه في عالم رجال الأعمال، وهو موقع لا يناسبه، ولا ينتمي إليه. كان العالم يقول له هذا بملء الصوت لو أنه كان يصغي. لم تكن تجربة ستوكيد خسارة ذهبت سُدى؛ فقد تعلم منها دروساً لا تُقدَّر

بثمن عن الطبيعة البشرية. ولهذا يجب ألا يشعر بالندم تجاهها. والحقيقة هي أنه كان مختلفاً؛ إذ كان يتصوّر في ذهنه مختلف أنواع الاختراعات الجديدة (السيارات، المنازل، المباني، المنشآت) التي تدل على مهاراته الحسية غير العادية. وبينما هو يشاهد الصف تلو الصف من الشقق السكنية في طريق عودته تراءى له فجأة أن الناس يعانون التشابه والرتابة على نسق واحد، وعدم القدرة على التفكير في فعل الأشياء بصورة مختلفة أكثر من معاناتهم عدم الانسجام.

أخذ على نفسه عهداً من تلك اللحظة أنه لن يستمع لأي شيء باستثناء تجربته الخاصة وصوته، وأنه سيجد طريقاً بديلاً لصنع الأشياء يفتح عيون الناس على إمكانات جديدة، وأن المال سيأتي في نهاية المطاف. أدرك أنه في كل مرة كان يفكر فيها في المال أولاً تحل الكارثة سريعاً. أخذ عهداً على نفسه برعاية أسرته، ولكن يجب عليهم الاقتصاد في العيش في الوقت الحاضر.

على مرّ السنين حافظ فولر على هذا الوعد، وقد أفضى سعيه لتحقيق أفكاره الخاصة إلى تصميم أشكال غير مكلفة وذات فاعلية من حيث الطاقة في مجال النقل والمسكن (سيارة الديماكسيون، وبيوت الديماكسيون)، فضلاً عن اختراع قبة جيوديسية الشكل (شكل جديد كلياً في هيكل العمارة)، ثم سرعان ما تبعتها الشهرة والمال.

لا يمكن أن يأتي أي خير من الانحراف عن المسار المُقدّر لك اتباعه. سوف تهاجمك صنوف من الآلام الخفية. يأتي الانحراف عن المسار غالباً بسبب إغراءات المال، أو التوقّعات الفورية بالنجاح. ولأن هذا لا يتوافق مع شيء عميق في داخلك؛ فإن اهتمامك سيخو في النهاية، ولن يأتي المال بعد ذلك بسهولة، وستضطر إلى البحث عن مصادر أخرى سهلة للمال، وهو ما سيبعدك عن مسارك الخاص أكثر وأكثر. إن عدم القدرة على رؤية ما هو أمامك بوضوح سيحيلك إلى وظيفة مغلقة لا تبارح فيها مكانك. حتى لو أشبعت حاجاتك المادية فإنك ستشعر بفرغ في داخلك، فتعمد إلى ملئه بأي نوع من نظم الاعتقاد، أو العقاقير، أو التلهّي. لا يوجد حلّ وسط هنا، ولا أي وسيلة للهروب. يمكنك تعرّف مدى انحرافك من عمق الألم والإحباط الذي تشعر به؛ لذا يتعيّن عليك الانتباه إلى إشارات هذا

الإحباط، وهذا الألم، وتجعلها دليلاً واضحاً لك مثلما كان صوت فولر قائداً له إلى مساره الصحيح؛ إنها مسألة حياة أو موت.

إن طريق العودة إلى المسار الصحيح يتطلب تضحية. ولهذا لا يمكنك الحصول على كل شيء في الوقت الحاضر. الطريق إلى الإتقان يتطلب الصبر. يتعين عليك أن تحافظ على التركيز خمس سنواتٍ أو عشرًا قبل أن تجني ثمار جهودك. إن عملية الوصول إلى مرادك مليئةً بالتحديات والملذات، فاجعل عودتك إلى المسار عهداً تقطعه على نفسك، ثم حدث به الآخرين. وبذلك يصبح الانحراف عن المسار مجلبة للعار والحرج. ختاماً، لن يجد المال والنجاح طريقهما إلى الذين يُركِّزون على الأشياء والأهداف، بل إلى الذين يُركِّزون على الإتقان والقيام «بمهمة حياتهم».

عكس القاعدة

بعض الناس ليس لديهم وعي وإدراك بميولهم نحو مساراتهم المهنية المستقبلية في طفولتهم، ولكنهم - بدلاً من ذلك - يُجبرون بطريقة مؤلمة على إدراك عجزهم وقدراتهم المحدودة. فهم لا يُحسِنون ما يجده الآخرون هيئاً سهل الانقياد، وإن فكرة النداء الداخلي في الحياة هي فكرة غريبة عليهم، وهم في بعض الحالات يُوطنون أنفسهم على الأحكام والانتقادات التي يصدرها الآخرون بحقهم، فيرون أنفسهم قاصرين عاجزين، وإذا لم يحذروا من هذه النزعة فإنها قد تصبح نبوءة محققة لذاتها.

لا يوجد أحد واجه هذا المصير بقوة أكثر من تمبل غراندين؛ ففي عام 1950م، وحين كانت في ربيعها الثالث، سُخِّصت أنها مصابة بمرض التوحد، وكان عليها - حتى ذلك الوقت - أن تُحرز أيَّ تقدُّم في تعلُّم اللغة، وقد ساد اعتقاد أنها ستبقى على هذه الحال، وأنها ستحتاج إلى العيش في مؤسسة تُقدِّم لها العناية طوال حياتها، ولكن والدتها أرادت أن تُجرِّب خياراً أخيراً قبل الاستسلام؛ إذ أرسلت تمبل إلى اختصاصي بالنطق تمكَّن - بأعجوبة وتمهَّل - من تعليمها اللغة، ما سمح لها بالالتحاق بالمدرسة، والبدء بتعلُّم ما يتعلَّمه الأطفال الآخرون.

بالرغم من هذا التحسن فإن مستقبل تمبل بدا محدودًا في أحسن أحواله؛ لقد كان عقلها يعمل بطريقة مختلفة؛ إذ كان تفكيرها قائمًا على الصور لا الكلمات. ولكي تتعلم كلمة ما كان عليها أن تكون قادرة على تصوّر المعنى في ذهنها، وقد زاد ذلك من صعوبة فهم الكلمات المجردة أو تعلم الرياضيات. لم تكن تمبل تُحسِن مخالطة الأطفال الآخرين الذين كانوا غالبًا يسخرون منها بسبب اختلافها عنهم، ومع هذه الصعوبات التعليمية، فما عساها أن تؤمل في حياتها سوى الحصول على وظيفة وضيعة؟ وما زاد الطين بلةً أنها كانت تملك عقلًا نشيطًا جدًّا، فحين لا يكون لديها شيء تُركّز عليه كانت تستسلم لمشاعر التوتر الشديد.

كلما شعرت تمبل بالقلق كانت تتراجع تلقائيًا إلى نوعين من الأنشطة التي تُشعرها بالراحة: التفاعل مع الحيوانات، وبناء الأشياء بيديها. فمع الحيوانات -ولا سيما الخيول- كانت لديها قدرة غريبة على استشعار مشاعر الحيوانات وأفكارها، فأصبحت خبيرة في ركوب الخيل. ولأنها تميل إلى التفكير أولاً عن طريق الصور؛ فقد استطاعت عند عمل أيّ شيء بيديها (مثل: الخياطة، والأعمال الخشبية) أن تتصوّر الشكل النهائي لما ستصنعه، ثم تجمعه بسهولة.

في سنّ الحادية عشرة، ذهبت تمبل لزيارة عمّة لها تملك مزرعة في ولاية أريزونا. وفيها أدركت أن تعاطفها تجاه المواشي يفوق تعاطفها حيال الخيول. في أحد الأيام لفت انتباهها بعض الماشية وهي توضع في القفص الضاغط الذي يضغط على جانبي الماشية للاسترخاء وتقييد حركتها قبل استخدام إبر التطعيم. لقد كان لدى تمبل طوال طفولتها رغبة في أن تُضَمَّ بإحكام، ولكنها لم تكن تحتمل أن يضمها الكبار لأنها تشعر بفقدان السيطرة في هذه الحالة، ولذلك كانت تشعر بالفرح. ناشدت عمّتها السماح لها بأن توضع في قفص الضغط، فوافقت العمّة، وقد أسلمت تمبل نفسها للشعور بالضغط الذي كانت تحلم به دائماً مدة ثلاثين دقيقة، وحين خرجت من القفص انتابها شعور هائل من الهدوء، وعقب تلك التجربة أصابها هوس بهذا الجهاز، وتمكّنت بعد سنوات عدّة من بناء نموذج بدائي منه لنفسها أمكنها استخدامه في المنزل.

والآن أصبحت تمبل مهووسة بموضوعات المواشي، وأقفاص الضغط، وتأثير اللمس والضغط في الأطفال المصابين بالتوحد، ولكي تشبع هذا الفضول؛ فإنها كانت بحاجة إلى تطوير مهارات القراءة والبحث العلمي. وبعد أن كان لها ذلك وجدت أنها تملك قوة استثنائية في التركيز؛ إذ كانت تستطيع القراءة ساعات في موضوع واحد من دون أن يصيبها أدنى شعور بالملل. توسّعت بحوثها شيئاً فشيئاً إلى كتب علم النفس، وعلم الأحياء، والعلوم بوجه عام. وبسبب ما اكتسبته من مهارات فكرية، قُبِلت للدراسة في الجامعة، وبدأت أفاقها بالتوسّع تدريجياً.

وجدت نفسها بعد سنوات عدّة، تتابع الدراسة للحصول على درجة الماجستير في علوم الحيوان من جامعة ولاية أريزونا، وعاد إليها الهوس بالمواشي؛ فأرادت عمل تحليل مُفصّل لحظائر الماشية وأقفاص كبح المواشي على وجه الخصوص؛ وذلك للمساعدة على فهم الاستجابات السلوكية للحيوانات. لم يستطع أساتذتها فهم هذا الاهتمام، وقالوا لها بأن مقترحها غير ممكن. ولأنها لا تعترف بالرفض جواباً؛ فقد وجدت أساتذة في قسم آخر كانوا على استعداد للإشراف على مشروعها، فشرعت في إجراء دراستها، وفي أثناء ذلك تمكّنت أخيراً من أن تلمح مهمتها في الحياة.

إنها لم تكن مقصودة لحياة الجامعة؛ لقد كانت شخصية عملية تحب صنع الأشياء، وكانت بحاجة إلى تحفيز ذهني مستمر. لذلك قرّرت أن ترسم طريق مسارها المهني الخاص، وبدأت بالعمل الحر، مُقدّمة خدماتها لمختلف أصحاب المزارع ومربي المواشي، وتصميم الأقفاص الكابحة التي كانت أكثر ملاءمة للحيوانات وأكثر كفاءة، وشيئاً فشيئاً ومع ما تملكه من حسّ تصوّري في التصميم والهندسة استطاعت أن تُعلّم نفسها أساسيات العمل، ثم وسّعت خدماتها لتشمل تصميم مسالخ للمواشي أكثر رافة بالحيوان، ووضع نظم لإدارة حيوانات المزرعة.

مع رسوخ هذه المهنة على أسس ثابتة، شرعت تمبل في التقدّم إلى ما هو أبعد من ذلك؛ إذ أصبحت مؤلّفة، وعادت إلى الجامعة للتدريس، وتحولت إلى مُدرّسة موهوبة في

مجال الحيوانات والتوحد، فبطريقة ما تمكّنت من التغلب على مختلف العقبات المستعصية في دربها، ووجدت طريقها إلى مهمتها في الحياة التي كانت مناسبة لها حتى الكمال.

حين تكون أمام النواقص والعجز بدلاً من القوة والميول فإن ذلك هو أفضل إستراتيجية تتبّعها في المواجهة: تجاهل نقاط ضعفك، وقاوم الإغراء الذي يحثك على أن تكون مثل الآخرين، وبدلاً من ذلك - مثلما فعلت تمبل غراندن - وجّه نفسك نحو الأشياء الصغيرة التي تجيدها؛ لا تحلم، ولا تضع لنفسك خطأً كبيرةً للمستقبل، وركّز على أن تصبح بارعاً في هذه المهارات البسيطة والفورية؛ فهذا يجلب الثقة، ويصبح قاعدة يمكنك الانطلاق منها والتوسّع إلى المساعي الأخرى، ولا شك أن السير بهذه الطريقة - خطوة خطوة - سيتيح لك الوصول إلى «مهمة حياتك».

تذكّر: مهمة حياتك لا تظهر لك دائماً من ميل عظيم أو رغبة واعدة، فقد تظهر مستترة في جوانب عيوبك وعجزك، فتجعلك تُركّز على واحد أو اثنين من الأشياء التي تجيدها حتماً. وببذل المجهود في هذه المهارات ستتعلم قيمة الانضباط، وتشاهد المكافآت التي ستنالها نتيجة الجهود التي بذلتها. سوف تتوسّع مهاراتك، كزهرة اللوتس، إلى خارج مركز قوتك وثقتك. لا تحسد من لديهم مواهب طبيعية؛ فإنها تكون غالباً نقمة عليهم، لأن هذا الفئة من الناس قلما تتعلم قيمة الجهد والتركيز، وستدفع ثمن ذلك لاحقاً في الحياة. تنطبق هذه الإستراتيجية أيضاً على أيّ نكسات وصعوبات قد تواجهها. وفي مثل هذه اللحظات، يكون من الحكمة عموماً التمسك بعدد قليل من الأشياء التي نعرفها ونتقنها جيداً؛ لكي نستعيد الثقة بالنفس.

إذا استطاعت امرأة مثل تمبل غراندن - بالرغم من كثرة ما واجهته من مصاعب منذ الولادة- أن تجد طريقها إلى مهمة حياتها وتبلغ بها حدّ الإتقان، فهذا يعني أن هذه القوة لا بد أنها في متناول الجميع.

«عاجلاً أو آجلاً يوجد شيء ما يدعونا إلى مسار معيّن. ولعلك تذكر هذا الشيء بما يشبه إشارة نداء في مرحلة الطفولة حين تأتيك رغبة مُلحّة من حيث لا تدري: افتتان، انعطاف

غريب في الأحداث يصدرك كالبشارة. هذا هو ما يجب أن أفعله، هذا هو ما يجب أن أحصل عليه، هذا هو أنا... وإذا لم يكن هذا الشيء بهذا الوضوح والتوكيد فإن الدعوة ربما كانت أشبه بدفع لطيف باتجاه التيار الذي كنت قد جنحت عنه من دون أن تدري إلى نقطة مُحدّدة على ضفة النهر. وإذا نظرت إلى الوراء فإنك تشعر أن للمصير يداً في ذلك... ويمكن لهذه الدعوة أن تُؤخّر إلى أجل، أو أن يُحاد عنها، أو قد تُفوّت. ويمكن أيضاً أن تستحوذ عليك تماماً. وأياً كان الأمر فإنها - في نهاية المطاف - لا بد أن تخرج. وستعلن عن مطلبها... الأشخاص الاستثنائيون تظهر لديهم الدعوة بجلاء. ولعل هذا هو سبب افتتان الناس بهم. وربما أيضاً أنهم استثنائيون؛ لأن دعوتهم تأتي إليهم واضحة جلية، وهم مخلصون جداً لهذه الدعوة... الأشخاص الاستثنائيون يشهدون أفضل شهادة؛ لأنهم يكشفون ما لا تقدر على كشفه الأخلاق العادية. يبدو أننا نعاني قلة التحفيز وكثرة التشتت. ومع ذلك فإن مصيرنا مدفوع بقوة المحرك العالمي نفسه. إن الأشخاص الاستثنائيين ليسوا فئة مختلفة، بيد أن طريقة عمل هذا المحرك فيهم هي أكثر شفافية».

- جيمس هيلمان